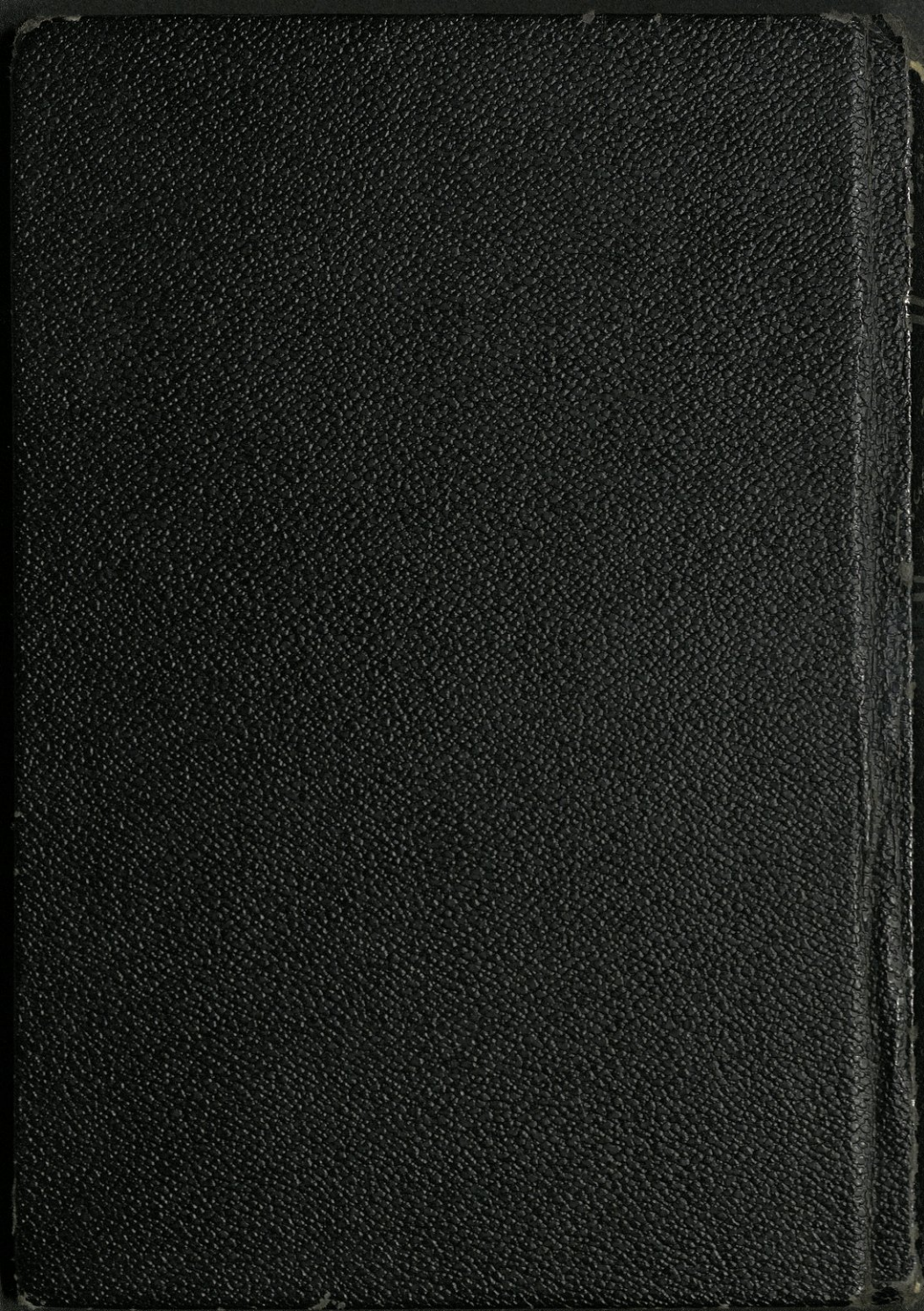
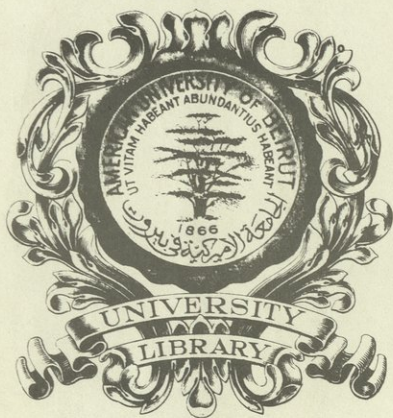


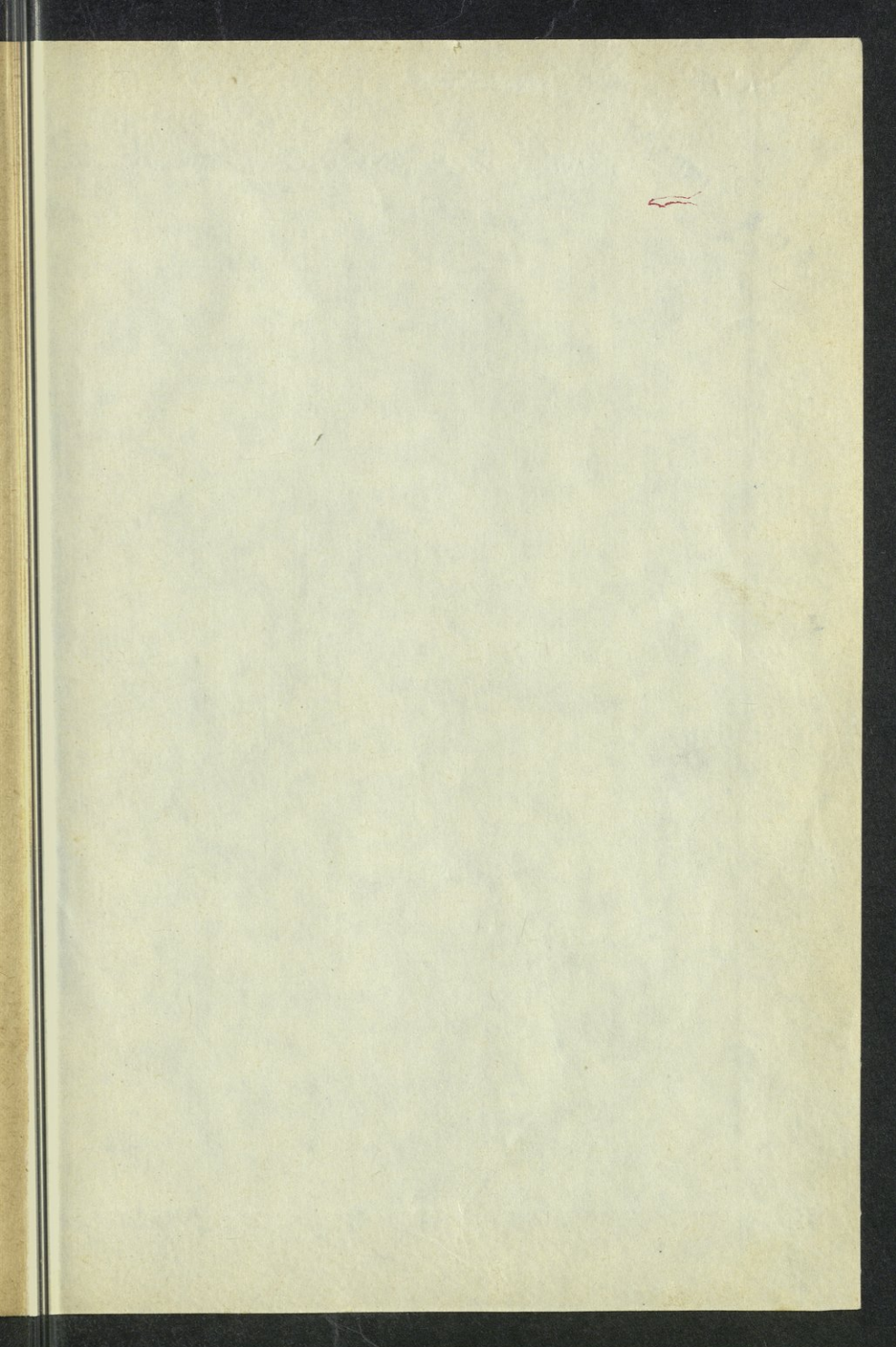


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



2.07

A.U.B. LIBRARY



A.U.B. LIBRARY

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

892.78

A 989 Ys dA
C.1

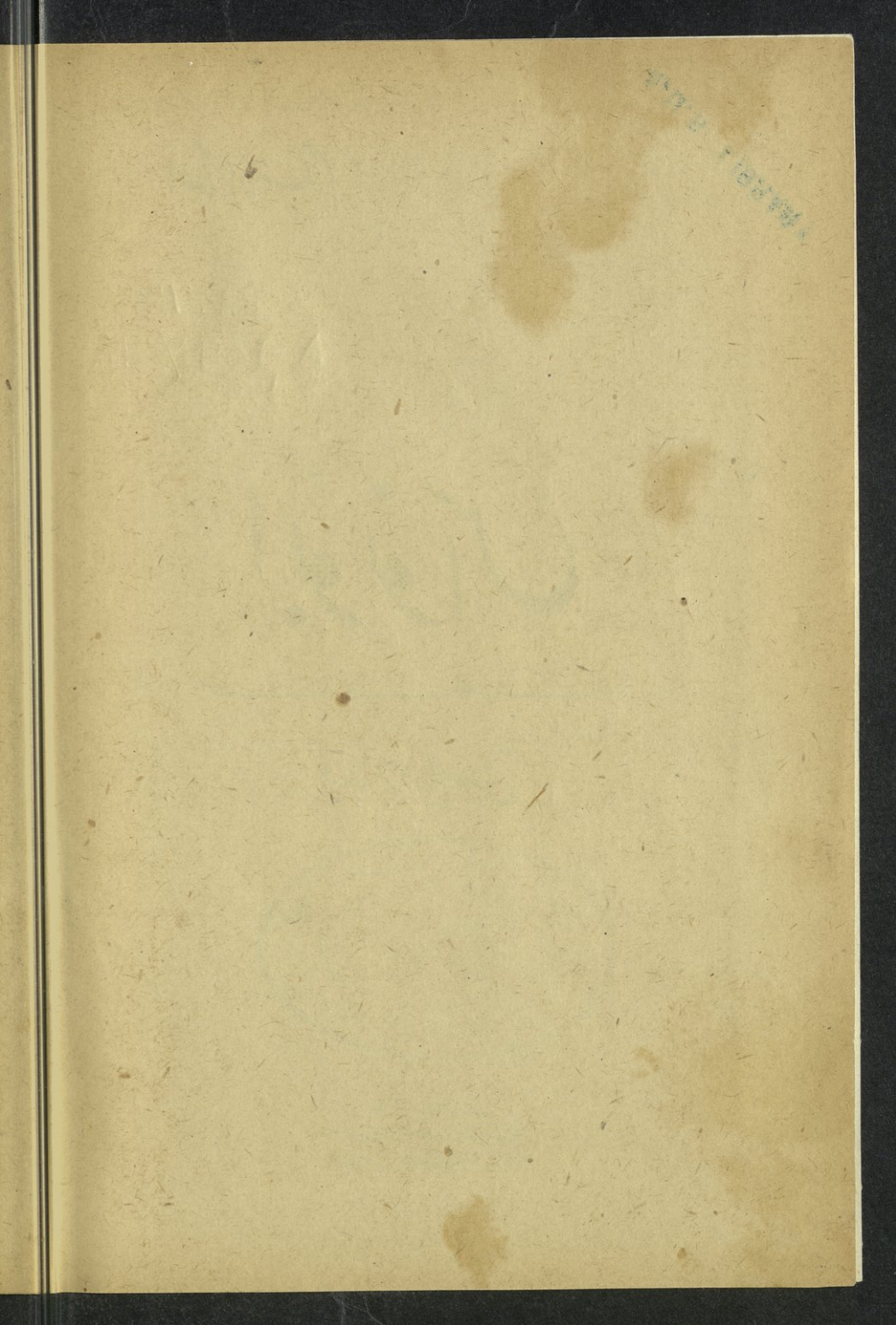
أَبُونَوَاسٍ

قصّة حياته وشعره

عبد الرحمن صدقي



مكتبة المطبع والنشر انتصاب
دار احياء الكتب العربية
عيسى البنا والحلبي وشركاه



مقدمة

نقتصر في هذه المقدمة على كلمتين : عامة ، وخاصة

فأما الأولى ، فنقصد بها الى دفع ما وقع في بعض الأوهام من أن المعنى المراد بمجموعة « أعلام الإسلام » أنها وقفٌ على الترجمة للهداة المصلحين والفقهاء المجتهدين والأبطال المحاربين عن حوزة الدين . فالمجموعة فيما أرادته اللجنة القائمة بنشرها هي في حقيقة الواقع أوسع من ذلك مجالاً وأرحب أفقاً . فهي تشمل على هؤلاء وعلى غير هؤلاء ، ممن تفيد الترجمة لحياتهم في تمثيل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي ، في بداوته وحضارته ، وفي جده ولهو ، وفي إيمانه وفلسفته ، حتى يخلص من ذلك كله صورةً كاملةً صادقة لما كانت عليه تلك العهود ، وما دخل عليها من آثار ، وما اختلف عليها من أطوار ، فيتمثلها المطالع العصري على جليتها وحقيقتها ويتعرف موجبات تقدمها ورتبها ودواعي تدهورها وسقوطها .

وأما الأخرى فتريد بها بيان ما توخيناه في وضع هذا الكتاب ورسم معالمة وسياقة أجزائه . فقد توخينا في ذلك منهج التراجم الحديثة من إظهار

المترجم له شخصية حيةً موصول الرحم بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ،
يُستبان هنا وهناك في سماته ومتصرفاته عِرْقُ الوراثية وأثر البيئة . ولقد أفرغنا
وسعنا وبذلنا غاية جهدنا في الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حيناً ،
ومن ديوان أشعاره في معظم الأحيان ، حتى تهياً لنا في ترجمته ما تهياً من
تأسيس البنيان وإقامة الأركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة
دون أن يخلو قول من سند له ، أو - على الأقل - من مصداق على جواز
صحته ، من سير الحوادث في التاريخ العام ، وخصائص الشعوب في شتى
البلدان ، وطبائع الإنسان من حيث هو إنسان . نجأت الترجمة لأبي نواس
- كما يراها القارئ - مطردة السياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياته من نشأته
إلى وفاته مرحلة بعد مرحلة ، مع قلة المراجع في هذا الشأن وانصراف
الأقدمين الذين ترجموا له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الأكبر - مع
تصوير دنياه وحياته الخارجية - تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ،
ليتم التركيب وتوصل على قدر توفيقنا المعجزة ، فيعود أبو نواس بعد نيف
ومائة وألف سنة إلى عالم الحياة بشراً سوياً ، كما بقي في عالم الأدب شاعراً
متدارساً الشعر متعارفاً القدر عبقرياً .

غرام حبيدي

كان كلُّ شيءٍ يؤذن بسقوط البيت المالك الأموي وأقول نجمه ، بعد أن بلغت رقعةُ الملك في عهد بني مروان مثل الذي بلغته في أوج العظمة امبراطورية الرومان ، إذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقاً الى المغرب الأقصى والأندلس غرباً . ولقد كانت العاصفة تهب من كلِّ أُوْبٍ وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون في خلفاء بني أمية إلا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التي يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تتربّ الساعاة خلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب وبطونهم ت جيش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصّهم ولا تعني غيرهم ، وفي غمار هذا جميعه المهيجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعتهم إيقاد جمرها وتأريث نارها .

وفي هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالي الهمة مروان الثاني

وهو وقتئذ شيخٌ قد ناهز الستين . ولم يطل قراره في دَسْت الملك حتى انتقض أهلُ حمص وفلسطين ، فأبلى القائدُ الحنك في حربهم وأوقع بهم وأخذ ثأرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليم والحجاز والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم وأجلى من كانوا منهم باليمن والحجاز إلى حضرموت ومن كانوا بالعراق إلى ما وراء دجلة .

وطلب مروان بن محمد بعض الراحة والاستجمام في قصره المحبب إليه في « حرّان » . ولكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحية فارس وخراسان ، فأنفذ الجند إلى ما وراء دجلة للشحنة والرباط .

كان من الأطراف التي أوفد إليها الخليفة الأموي البعوث لعظم شأنها من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالها جنديٌّ من غمار الجند شاءت المقادير أن يحفظ التاريخ اسمه طوال ما غير من سوائف السنين ، وهو لا محالة حافظه في مستأنف الأيام إلى أبد الآبدين ذلك الرجل هو « هاني » . وكل فضله أن المقادير شاءت أن يكون أباً لابنه « الحسن بن هاني » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين . قدم « هاني » مع سائر أجناد فرقته إلى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم في ظاهر المدينة . وكانت المدينة تُعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من

النواحي المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب إليها . ولم يكن بين الجند من ارتاحت نفسه إلى هذه الثقله للذى وجدوه من حرها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينة من منافع المياه الغليظة والسباخ هبوة داخنة متصاعدة ، يُقابلها الجبل الصخرى الناصب المطل عليها ، فتنعقد فى الجو وتزيده حراً ووخامة . فإذا أظلم الليل واستروحوا بعض البرد فى جنحه ، لم تطمئن جنوبهم الى المضجع من لسب البعوض . فلا جرم يقبلون بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالغون .

ولم تلبث الحامية أن تفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها « هانى » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته فى آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى وكانت سوق الأهواز تحترقها مياه مختلفة . وكان هذا كل ما يستحبه « هانى » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية من مناظر دمشق الشام - موطنه المحبب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصبة الإسلام . وهو أشد ما يكون انجذاباً إلى ذلك الوادى العظيم الذى يشق الأهواز ، لا يميل النظر إلى مائه الأحمر الزاخر من المدود ، ولا يضجر من جلبه النواخير والأرحاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالصفة القرية ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقاً فى تأمله ، يغوص بنظرته فى طوامى عمرته حتى يبلغ العدو^(١) الأخرى .

فى عصر يومٍ شديد الحر خرج « هانى » إلى النهر ، وأطال السير محاذياً

(١) الجانب والصفة

له التماساً للنسيم وارتداداً للخضرة . فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه
خائل أشجارٍ وشجيراتٍ موقرات بالفاكهة والثمار ، ثم مزارعُ الأرز مغمورة
بالماء ، حتى إذا أبعد في المسير انبسطت على مدِّ البصر مغارسُ قصب السكر
قائمة الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الرماح الخطيئة ، فإذا التفت
إلى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمرة ، امتلأت نفسه روعةً
وجلالاً ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجري في حدود مسيله كأنه
البحر في مجاريها ، وموجُّه يضطرب ويغلي ويموج بعضه في بعض ، ويعلو
أثباجه ^(١) من شدة فوره وحيشانه مثل اللغام ^(٢) من قطع الزبد وطرائق
الرغوة ، وقد عجب عجيبه وارتفع هديره .

ومضى « هاني » مأخوذاً يطوى الطريق ، وهو في شغلٍ عن المسافة التي
قطعها ، والتي يلزمه في العود أن يطوى أدراجها . حتى إذا انقطعت المزارع
وتبدل لعينه المنظر ، ثاب إلى نفسه فرأى الشمس جانحةً للمغرب ، وطالعت
غير بعيد منه قريةً صغيرة على سفح ربوة . وأحسن وقتئذٍ فقط بما أصابه من
التعب ، فمال إلى صخرة يستريح .

وإنه ليلتفت حوله إلى ألوان الأصيل على الموج وما ترسمه ظلال الصخور ،
إذا بعينه تأخذ شخص امرأة على بعض الحجارة المتقدمة في الماء ، وهي مكبة
على شيء تغسله في النهر ، وقد شمرت عن ساقها وحسرت عن ذراعيها ، وهما
يضئان من نضاعة اللون والبياض . ولم تكن بالكثيرة اللحم ولكنها كانت

(١) أواسطه وأعالیه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

مكشورة مبتلة ، بضّة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما أن شعرت المرأة بالقادم أزاحت متهدّلة الشعر عن جانبي وجهها ، ونظرت إلى ناحيته . وكان حسبها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزته أنه لابد من أجناد الحامية العربية . ولم يكن هاني يشارك الجند في خشونة الطباع والسرعة إلى التقحّم والاجترأ ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر إليها معجباً ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر في الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقي عيناها . وقد وقع - ولا شك - في نفسها قوامه وشاربه المفتول ووجهه الأسمر الذهبي تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تحمل إجاتها^(١) ولم تحفل من العجلة أن ترمّ الجيب^(٢) على صدرها . وقد توخّط أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلت وهو ينظر إليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجراً فسألها عن هذا الذي معها فقالت « صوف أغسله » . وعلم منها في بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد رنّقت وكاد يحتفى قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة في سفح الربوة ، وهي تمس ناعمة لينّة ، وقد أبدى أعطافها ثوبها المبلّل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب إلى حقوئها . فلم يملك هاني نفسه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية وكانت الدروب على ضيقها تزحمها قطعان الغنم القافلة من

(١) الأجانة : إناء تغسل فيه الثياب (٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وما فور منه .

صراعيا . ولكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتاً من تلك البيوت المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت إليه لفتةً رآته لهفةً على لهفة .

ولم يبرح « هاني » حتى تعرّف المكان ، فعرف أنه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « إستانه أثار ^(١) » ومعناه باب النار ، وأن اسم فانتته « جُلْبَان » أى غصن الورد .

لم ينعم « هاني » طويلاً بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيا - قبل أن ينصل خضابُ العرس من يديها - فغيرُ الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعت بعد الخفاء أعلامُها واندلع في الأفق ضرامُها .

في ليلة الخميس ، لحس بقين من رمضان من سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان ، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين إظهاراً للدعوة وإعلاناً للثورة . فأقبلت العشراتُ

(١) ورد اسمها « أستان مابارد » ولعله خطأ في النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « إستانه أثار » أى باضافة الميم التي بأول الكلمة الثانية إلى النون في آخر الكلمة الأولى فتكون هاء ، ثم جعل الدال التي في آخر الكلمة الثانية سكوناً على الراء ، فيكون اسم القرية « إستانه أثار » ، وهى بعينها « باب أذر » التي وردت في مراجع أخرى محلا ميلاده ، لأن إستانه معناها باب ، ولفظ أتر - أو - أذر - أو - أذر بمعنى واحد أى النار

والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسود ، مجهزين بالعدة والسلاح ، وانتشروا كقطع الظلام تظللهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جندٌ لهم أبدانٌ وأجسام ، ومنه كب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصواتٌ فخمة تخرج من أجوافٍ منكرة - وهم إلى ذلك ذوو عددٍ كثير ، وجلَدٍ ظاهر ، وقلوبٍ فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل . وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغاظ أمرهم واستوثق . فاكسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها .

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية وإحكام تدير الثورة وتسيير دقتها ، أن أسقط في يد عمال الأطراف من قبل الأمويين ودب الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختلف الأمر واستشرى الفساد وانخلدت الحاميات العربية في خراسان ، ثم في العراق . ثم التقى الجيشان : جيش مروان وقد جرّد من رجاله - ممن اختارهم من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم - مائة ألف فارس على مائة ألف قارج ، وجيش المسوودة الكثيف برماحهم كأنها النخل غليظاً ، وفي أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البُحْتُ وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » لاحتدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر للثوار الخراسانيين فتمت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بني أمية وظفر بالخلافة بنو العباس .

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفرق شملها ، وممها
حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسي الظافر « أبو العباس السفاح » قد وجه
عمه اسماعيل عاملاً على كورها . وعاد « هاني » الجندي القديم إلى زوجته في
قربها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد
والسرور . فقد كان يسره أن تنتهي الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من
انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جُلبان » كما تستقبل
المرأة المحبة زوجها ، وقد استطارها الفرح وماد بعطفها وغلب عليها . ولم
يكن فرحها كله خالصاً له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبيين ، ولكنه مضمّر
في طوايا نفسها لا يبين . ولم يعدم الجندي القديم وسيلةً للكسب الشريف ،
فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هي في صنع الأخراج ونسج الجوارب .
وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعي ، وألهما عن الفاقة ورقة الحال
ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام . وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها
عدة أولاد^(١) ، تعرف منهم فتاة يقال إنها كانت عند فرج القصار وهو
عبدٌ كان لأحمد بن عصمة الله الباخريزي ، ونعرف من المذكور اسماعيل ،

(١) قيل إن هانئاً لم يكن له ولد ولا خلف غير أبي نواس ، وقيل إن له أولاداً غيره .
وقد رجح الرأي الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد أبي معاذ على ألسن الرواة أكثر من
مرة على أنه أخ لأبي نواس ، ثم زادنا ترجيحاً ما ورد في تاريخ الأئم والملوك للطبري في
قوله في الجزء العاشر في الصفحة ٢١٩ ما نصه (وذكر عن إبراهيم بن اسماعيل بن هاني
ابن أخي أبي نواس قال حدثني أبي قال هجا عمك أبو نواس مضر في قصيدته التي يقول
فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ »)

ونعرف أكثر منه أحمد أبا معاذ وهو الذى يقال إنه كان يعمل مؤدباً لأولاد
فرج الرُّخَجِيّ الحَبَّاز^(١) ، ثم نعرف الحسن - وكان مولده فى القرية نفسها
المعروفة بباب النار سنة ١٤١^(٢) فى عهد ثانى الخلفاء العباسيين أبى جعفر
المنصور - وهو الذى نبغ ذكره من الأسرة وبه عُرفتْ ، حتى كان أبو معاذ
مع عَظَمَته من مذاهب الأدب وقلة إحسانه لشيء منها يتعشش بأنه أخوه ،
وكان اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى ابنه إبراهيم .

وهذا « الحسن بن هانى » هو شاعرنا الذى عرفته الأجيال بعد ذلك
باسمه المحبب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر
الشعراء المحدثين .

(١) ورد فى بعض رسائل الجاحظ « فى صناعات القواد » ما نصه « وسألت فرجا
الرُّخَجِيّ وكان خبازاً . . . »

(٢) اختلف الرواة كعادتهم فى مولد أبى نواس ووفاته . فذكروا فى مولده سنوات
١٣٦ - ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٨ - ١٤٩ وجاء فى الجزء السادس عشر فى الصفحة ٧٤
من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال « أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول سنة
١٥٠ وولدت فى آخرها » . وذكروا فى وفاته سنوات ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ -
١٩٩ - ولكنهم على الإجماع أو ما يشبه الإجماع من أنه مات وعمره تسع وخمسون سنة .
ولما كان أبو نواس قد رثى الأمين وكان قتل الأمين فى سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفى سنة
١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده فى سنة ١٤١ وهذا التواريخ لمولده ووفاته يطابقان ما نقله
جامع ديوان أبى نواس حمزة بن الحسن الأصبهاني عن أبى بكر أحمد بن شقير النحوى عن
أحمد بن أبى طاهر .

طالِبُ عِلْمٍ

كان بأطراف البصرة ، في بعض الدروب التي تخرج من سكة المربد ،
 نيتٌ من القصب تسكنه امرأةٌ أهوازية وفدت عام ١٤٣ على البصرة
 ومعها زوجها وهو وقتئذٍ طرّاًزٌ حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديثَ
 عهدٍ ، فلا جرّم يكون ضعيفَ المقدرة مضيّعاً عليه في الرزق . ولم تسكن
 امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بليان غلامها « الحسن » - وكان ابن
 سنتين^(١) - غلاماً من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ،
 ولكنه كان عوناً على كل حال لمن كان بموضعها من الحاجة وكثرة العيال .
 ولم تطل المدة حتى أرملت « بليان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها
 وكانت من النساء برّزةً شمللاً ، لها على الحياة جرأة وإقبالٌ ، فلم يركبها
 همٌّ ولم تفقر لها همة . وعمدت إلى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تغشى

(١) قبل في بعض روايات ابن منظور أن أبا نواس انتقلت به أمه إلى البصرة وهو
 ابن ست سنين ، ولكن الذي أثبتناه هو ما ورد في ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره
 سنتان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعي أن أمه كانت في البصرة ترضع بليانه
 غلاماً من ثقيف ، وهذا أقول قاطعاً بأنه كان رضيعاً وقت قدوم أمه به

البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصناعات المدربة ، فانفجرت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت إلى دار في المدينة من الأجر والخص . ونفقت تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين في أشياءها من الغواني والرجال حتى قيل إنهم كانوا يلتقون عندها على موعد وإنها كانت تجمع بينهم لريبة .

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تغص بالسكان من كل لون وسحنة . فهي واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقاً إلى الهند والصين ، وتمتد غرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن في فُرُصتها تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافدين .

وفي هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفي هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جُلْبَان » عيشتها في طلب الكسب . وكانت - مع ما يدخل إليها من ربح - لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صغار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها في البخل على نفسها وعلى ولدها .

ولقد زاد « جُلْبَان » استمساكاً بالحرص ما كان يتقلب على عينيها أو يتصل بسمعها في عصر الانتقال الذي تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحياناً من ثورات ويستشرى من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وعلت في الناس كلمته وملاّت الصدور هيبتة - ومن

ذلك ما جرى في البصرة نفسها بين سمعها وبصرها . فقد ظهرت الدعوة في سنة ١٤٥ ل محمد العلوى - الملقب بالنفس الزكية - من حفدة الحسين بن على ، وكان معظم رجال البيت الهاشمى ومنهم المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة في أيام الثورة على البيت الأموى ثم عادوا فأثروا بها أنفسهم . وكان من شأن إظهار الدعوة أن وثب أخوه إبراهيم على البصرة ، فغلب عليها وأبدل شعار أهلها من السواد إلى البياض واتخذها مقره ، ثم انبسط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلما وقر في النفوس أن الدولة للعلويين ، وأنه قد أدب لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعاً حتى قال في ذلك بشار بن برد مشيعاً لعهد أبى جعفر المنصور متشفياً بمصير دولته :

أبا جعفر ، ما طول عيش بدائم . ولا سالم عم قليل بسالم
إذا بالجيوش العلوية تنهزم ، ويتبدل الحال غير الحال . وتعود البلاد كلها
إلى حوزة الخليفة العباسى فيعمل القتل في العلويين ، وينكل بمن آزر دعوتهم
من أشراف البصرة ، يصلب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدك دورهم
ويخرب بساتينهم ويصادر أموالهم . واختلطت الأمور في المدينة واضطربت
الأرزاق ودحاً غير قصير من الزمن .

وواضح من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملائسة لم يكن من شأنها أن تعدل بجلبان عن طبيعتها - لو صح أن للمرء عن طبيعته معدلاً .
فهى ماضية في حرصها بتواطؤ من طبعها وعقلها .

ولقد دفعت جُلبان الصبي منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان في البصرة الى كُتّاب من المكاتب القريبة من الدار . فكان « الحسن » يغدو إليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزاً حتى تقدّم الغلام فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التقصير في المكاتب الضرب والحبس . والذي يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصف غلام في « مكتب حفص » ناله الضرب من مقرعة المعلم وهو ناعم من الغلمان المترفين المدللين . والمقطوعة كسائر مقطعات شاعرنا غاية في لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفص « إجلدوه إنّه عندي بليدٌ .

لم يزل منذ كان في الدر س عن الدرس يحدّ

كُشِفَتْ عنه خُزُوزٌ وعن الخزّ برود^(١)

ثم هالوه بسيرٍ لئن ما فيه عود

عندها صاح حبيبي « يامعلم لا أعود »

وكان اشتهر في البصرة في ذلك الحين القارئ العالم يعقوب الحضرمي وهو من بيت علم بالعربية والأدب، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح إمام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة في القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ،

(١) الخز من الثياب ما نسج من حرير - والبرد ثوب مخطط .

فجعل يعلمه حسبةً ولا يأخذ على تعليمه أجراً . وزاد أنه حين رأى حفظه
وحذقه رمى إليه بخاتمه قائلاً : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة »
ولما شبّ الغلام رغب في الأدب وتعلّق بالشعر . ولم يقع ذلك من أمه
موقعاً ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئاً لما يحصل عنها في البصرة من
وافر الأرزاق . فأسلمته على رغبة إلى بعض العطارين يعمل عنده ويبرى له
عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما في نفسه . وجعل كل يوم يأتي المسجد الجامع
فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ إلى سارية ، ولكل مُريد أن
ينتظم في الحلقة التي يريدها . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر في المسجد على
علوم الدين ، وإنما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل
والموضوعات . فكان « الحسن » يقعد بين من قعدوا إلى أبي زيد الأنصاري
النجوى الغوى ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات
من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها
وغريب ألفاظها . ويتحول إلى « أبي عبيدة معمر بن المثنى » الفارسي الأصل
العربي المربي ، فينفسح له الأفق وهو يصفى إلى كلامه المستبخر الجامع عن
أيام العرب وقبائلهم وأسابيهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس
وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحياناً ويبسط القول في مثالبها . ولقد كان
أبو عبيدة - لأصله الفارسي - صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، وإذا قرأ
البيت من الشعر لم يُقيم إعرابه ويُنشده مختلف العروض ، مع وفور عقله
واشتماله على علوم العرب . حتى جرى قولهم فيه أن من يأتي مجلسه اشترى

الدرّ في سوق البعَر . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه :
 « أديم طوى على علم » . ثم كان الحسن يقبل على « خلف الأحمر » وهو
 من أبوين فرغانيين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها
 بالشعر ونقده وبالشعراء ومذاهبهم . فیتلقی منه ويتلمذ عليه ويكثر من
 الجلوس إليه . وكان يشهد أحياناً في بعض الأركان من المسجد مناظرات
 الأدباء ومُلاحاتهم ويمرّ أحياناً ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحية يملون
 أشعارهم في شتى الأغراض من المديح الى الغزل . وكان يحضر الحديث على
 الإمام « عبد الواحد بن زياد العبدی » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين
 الثقات . فإذا اشتهى الكلام فليس يخلو المكان من أصحابه يستمع إليهم
 ويأخذ عنهم

وظلّ الحسن أعواماً على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل في
 المساء بين هؤلاء وغيرهم في مسجد البصرة وفي دورهم ، يلتهم علوم زمانه
 التهاماً ، ويطوى مراحلها طيًّا . وهو في أثناء ذلك لا يفتُر عن معاناة الشعر
 وتسقط أخبار الشعراء ، وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والجحّان .
 وكان الفتى حسن الوجه ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفاً كبير الهامة
 منسدل الذوائب ، أثغ بالراء يجعلها غنيّاً ، وفي حلقة حُجّة لا تفارقه ، وذلك
 إلى لين طبعٍ وحلاوة شمائل . فكان إذا دخل حلقة الدرس التفت القوم
 إلى حسنه وحداثة سنّه وجمعه خفة الروح والفراهة إلى الذكاء وقوة التحصيل
 وكان ممن لفتهم صاحبنا في هذه السن أو نحوها محمد بن منذر الشاعر .

فقد دخل ابن منذر في بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ، فوقعت عينه على فتى مستند إلى السارية ، فالتبس رقعةً ودواةً فكتب إليه أبيتاً مدحه بها ، وسأل غلاماً أن يوصل الرقعة إليه . فلما قرأها الفتى قلبها وكتب على ظهرها ساخراً ما جئنا :

مثلُ امتداحك لي بلا ورق^(١) . مثلُ الجدار بُني على خُصٍّ^١
واللَّذُّ عندي من مديحك لي سودُ النعال ولينُ القمُصِ
فلما قرأها ابن منذر قام إليه فقال : « ويلك ، أنت الحسن ؟ » . قال :
« نعم » . فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

ولقد أشار شاعرنا إلى هذه الحال في مستأنف أيامه في قصيدة له مطلعها :
إذا ما وطيَّ الأمرُ دُلَّ العلمُ حصَى المسجدِ
وكانت أمه قد شغلت عنه بغرامٍ جديدٍ بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد أصاب الحسن من ذلك تعبيراً لداته وأقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر . ومنه قول أبان اللاحق :

إن يكنْ هذا النواصيِّ بلا ذنب هجانا
فلقد عَفَّاهُ حيناً وصفَعناه زمانا
هانئُ الجَوْنُ^(٢) أبوه زاده الله هوانا
سائلُ العباس ، واسمعْ عنه من أمك شانَا

(١) الدراهم المضروبة (٢) الجون الأسود إشارة إلى شدة سميرته

ولم يكن إلا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقيةَ الباقية من رعاية أمه
فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذي أحبته . وكانت من صنف المرأة
التي لا تصبر على عزوبة ولا تَفْنَى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد
بكليتها ولذّھلت عن ولدها ، فأھملت شأنه غاية ما يكون الإھمال ، وتركت
العطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سببٌ
بينهما حتى موته .

ولعلّ الفتى ارتاح في دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرّية ،
إذا شاء ركب رأسه ، وإذا شاء لزم درسه . فقد كان الحسن متقدماً على سنّه
في بكور عقله ، وفي يقظة حسّه . فهو شديد النهم الى المعرفة وإلى الحياة
معاً . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرة زاخرة .

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحد المصّرّين
- البصرة والكوفة - اللذين كانا قبل بغداد يقومان على إشاعة المعارف
والعلوم العربية ، وسائر البحوث الثقيلة والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان
الأدب وضروب الثقافات . وكانت في ذلك تتنافسان وتتفاخران وتشكّثان
بالتواضع والعطاء في كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك - بما يزعم
أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الأموال والخيرات - حاضرة عظيمة
من حواضر اللهو ، تعجّ بما فيها من الملاهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن

والغوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بني العباس حين فكروا في التحرز
للملوك من أطاع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة
يُقطعونهم فيها القطائع والضياع الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى
يشغلهم مقامهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة .

وكانت المدينة في حقل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة ، تتخللها المياه
وتتوسطها الميادين العجيبة ، وترهو بالحُصْب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات
الفواكه الأثيرة . وكان واديها الأعظم - مجتمع القرأتين المعروف بشط العرب
- يُقبل مأوّه مُعَنَّقاً ويفيض متدفقاً . وهو بالحدائق المتصلة منتظم - فأوله
الرُطْب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب - وبينها معاصر الدُّبُس . ولم يكن
في الدنيا أكثر نخلاً منها حتى كان يباع التمر فيها بأبخس الأثمان ، وكانت
النخيل تتصل مسافات شاسعة إلى أرباضها ومحلاتها وما جاورها ، فلا يكون
الإنسان في مكان إلا وهو في نهرٍ ونخيلٍ ، أو بحيث يراها .

ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالمعلق القلب عن هذه المقاتن .
وهو من عامنا من يقظة الحسّ وتفرّز الأعصاب وتشوّف النفس . وكان يمرّ في
كل صباح ومساء بالجداول والبرك الفسيحة تجري فيها الزواريق والسماريات
وفيهما المتنزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدري
ومُصعدين . فإذا احتواه حانوتُ العطار الذي يعمل عنده ، تطرّق إلى سمعه
ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصفٍ لما كان من مجالس

اللهو ونوادير السكر ، وإنشادٍ لأحدث ما نظمه الشعراء المحدثون في الخلعة
والمجون . حتى إذا كان العشيّة مع أهل المسجد لم تخلُ حلقاتُ الدرس من
روايةِ بعض الملح والبَطالات في الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكهين
غير متعرجين ، بحجة أن في بعض الهزل تنشيطاً للقلب وذهاباً بالسكال ،
فضلاً عن أن يلتقي بهم القى ويرافقهم في الطريق من الشطار والعيّارين
ومن لفّ لفهم من خلطاء السوء

الذنب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار
الذى أسلمته إليه ، وإن يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد
اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانهُ للأسمار وسماعهُ لرواة الأشعار .
وكانت نفسه تهتزّ للشعر ، تتشربّ معانيه شرباً ، وتتطربّ لوزنه ونغمه
طرباً ، وتغمرها منه غمرة تُسكر حسّه وتغلبه على وعيه . وكانت أُمّية حياته
التي بها يحلم ، أن يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكركم ويتغنى أهلُ
العصر بشعرهم .

ولقد شاء القدرُ الساهر فيما يخلط من خيرٍ وشر ، أن احتاج عاملُ
المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدي » إلى عطرٍ يعمل له ، فلم يجد في
الأهواز عطاراً يصلح لذلك . فبعث إلى البصرة في طلبه ، فأشخصوا إليه
أستاذ الحسن والحسن معه . وأقاما يعملان في داهه . واتفق أن قدم الأهواز
والبة بن الحباب الأسدي الشاعر قاصداً للأمير - وهو ابن عمه - فمدحه وأقام
عنده . ووقع نظرُ الشاعر الغزل الماخن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب

بظرفه . ثم خاطبه ووَصَلَ معه الحديث ، فسرّه ما كان عليه « الحسن » من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث أن اطَّلَعَ منه تعلقًا بالشعر ، ورغبةً في الاقتدار عليه ومجاراة صاغة القريض وروّاض القوافي من الشعراء المذكورين . فقال له : « إني أرى فيك مخايلَ فلاح ، وأرى لك ألا تضيعها . وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصبني حتى أخرجك » .

فتطلع الفتى متشوّفًا إلى هذا الذي أحسنَ الظن باستعداده ، وقَطَعَ على نفسه العهد الأكيد بتخريجه . ولم يملك أن سألَه مبتدراً : « ومن أنت ؟ » . قال : « أبو أسامة » . فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال : « نعم ! » . قهّل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمناً : « أنا والله - جُعِلْتُ فداك - في طلبك ، وقد أردتُ الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك » . قال الرجل متعجباً معتبطاً : « ولماذا ؟ » .

فاسترسل الفتى ساجحَ النظرة فائرَ النفس : « شهوةٌ للقائك ، ولأبياتٍ سمعتها لك » . قال : « وما هي ؟ » .

فأنشد الحسن بصوت حلو ألّغ ، يجعل الرء غينا ، وفي نبرته حرارة الإعجاب وهزة التأثر :

ولها - ولا ذنبَ لها -	حُبُّ كأطرافِ الرماح
جرحتُ فؤادك بالهوى	فالقلبُ مجروحُ النواحي
فازداد والبة حُبًّا وعَجَبًا .	

وكان والبة مذكوراً في البصرة ، وقد شاع ذكره واستطارت شهرته
 فيها لقدموه في جملة من قدموا على « محمد بن أبي العباس السفاح » حين ولاه
 عليها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ١٤٧ بعقب مقتل إبراهيم العلوي .
 فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء والمغنين ، وأصحابه عمه
 المنصور - داهية بني العباس - قوماً يُعاب بصحبتهن ومجاناً زنادقة ، لينغض
 ذلك منه فيرتفع ابنه المهدي عند الناس . وكان « محمد بن أبي العباس »
 يغلف لحيته بأواق من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير مسمرة حتى لقبه
 أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن يُغنّونه دُحمان وحكم الوادي
 ويشترك معهما أحياناً مؤدبه الخليل حماد عجرد في جماعة من ندمائه منهم
 والبة ، وهم جميعاً يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون في
 مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوى البنية شديداً نهاية في الشدة ، فكان
 أول من يفيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن علي » فاذا شرب
 غنّوه بما قال - أو بما قال حماد عجرد على لسانه - تشبيهاً بها فيطرب ويضرب
 برجله . وكان يأنس أشد الأُنس بالوبة ، ويسكن إلى ظرفه وخفة روحه ،
 ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يؤثّر عن ذلك في البصرة أن حكماً
 المغني دخل عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فاذا به يتعامل خماراً
 ويبيده كاس وهو يجتهد في شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين يديه وفي أيديهم
 أقداحهم . فقال « يا حكم غنّني ، فإن أطرقتي فلك كل ما يهدي إلى اليوم »

وكان بين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم . فعمد الحكم إلى أبياتٍ لوالبة ، فاندفع
يفغى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسُ
واليوم هو نيروزٌ قد عظمتَه المجوسُ
لم تُخطِه في حسابٍ وذاك مما تسوسُ

فطرب الأمير لها ، واستعادها ثلاث مراتٍ ، وعبّ قدحه ، واستمر في
شربه . وأمر لمطربه بأن يُحمل إليه كلُّ ما كان بين يديه .

وكان هذا وغيره من الأخبار والأشعار يشيع عنه في البصرة ويتسامع
به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها في تلك الأيام . فوقع الحسنُ - ولا جرم -
تحت تأثيرها ، وأخذته شهرةُ الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تِلْقاءه
كالنوم خدر النفس مضجع الحسن مسلوب الإرادة . فلم ينشب والبة أن
اخذعه حتى صار معه إلى الكوفة .

ورد الغلام مع أستاذه إلى الكوفة ، فطالعه من جانبها الشرق نخيلٌ
ملتهفٌ متصلة تمتد امتداد البصر ، وألفاها الطف من البصرة حرًّا ، وألقى
الهواء فيها أصبح ليس بالرطب الثقيل ولا بالذى يختلف في اليوم الواحد ،
وهي كذلك أطيب ريحاً بما في سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف
البصرة إذا هبت الجنوب على أرضها الناشئة السبخة . والكوفة مرتفعة عن
البصرة معظمها على الفرات ومنه شربُ أهلها . ويأتيها الماء بعذوبته وبرده ،
ولا يأتي البصرة إلا بعد تغيره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذعاق إذا كان

المد في الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى الحسن - وإن كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبه وصحبه - أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد صباه لم تزل أحب إلى قلبه وأحلى في عيونه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارة ، وأكثر خلقاً وأزحم قدماً وأدوم حركة ، كما أنها أشد تنوعاً وأبهج مجلى ، أوتيت من كل حلى وزينة .

وكان والبة بن الحباب على قولهم في نسبه - أسدياً صليبة . ولكنه كان مع ذلك أشبه بالموالى الروم منه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون حمرة ، ذهبي الشعر - كما تدل عليه صفته في هجاء أبي العتاهية له وتهجينه لنسبه إذ يقول من قصيدة :

وابن الحباب صليبة زعموا ، ومن الحمال صليبة أشقر
مابال من أبؤه عرب إلا وان يحسب من بني قيصر
أترون أهل البدو قد مسخوا شقراً؟ أما هذا من المنكر؟
أكذا خلقت «أبا أسامة» ، أم أطخت سافتيك بالعصفور
مالي رأيت أباك أسود غر ييب القذال كأنه زرزور
وكان وجهك حمرة رئة وكان رأسك طائر أصفر
ومن قصيدة أخرى :

أوالب ! ما دهاك ، وأ: ت في الأعراب ذو نسب ؟
أراك ولدت بالمرية يخ يا ابن سبائك الذهب
فجئت أقيشر الخدي ن ، أزرق ، عارم الذنب

هَلُمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصِّدِّ د فِي سَعَةِ وَفِي رَحَبِ
فَأَنْتَ بِنَا - لَعْمَرِ الْآ ه - أَشْبَهَ مِنْكَ بِالْعَرَبِ

وأهاجى الشعراء في والبة كثيرة ، وأكثرها فاحشٌ مقذع كالذى
هجاه به « سَلَمُ الْخَاسِر » - وهو راوية بشار وتلميذه - لما كان عليه والبة
من المقامح والمقاذر الخلقية . وكان والبة أبعد ما يكون عن ملازمة أهل الجد
من العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد في الدين ممن اشتهروا في مدينة
الكوفة الجليلة ، وفاخرت غيرها بهم . وإنما كان يجتمع إليه في الكوفة
جماعة منهم مطيع بن إياس ، وحماد مجرد ، ويحيى بن زياد الحارثي من
مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وهم فوق عيبتهم بالجوارى والإماء
يعدون أقدم المتهتكين في تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون في بعض
دورهم على الشراب والغناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضهم
على بعض أقبح العريضة ويتهاجون هزلاً وعمداً أخش الهجاء . وكان أهل
الفن لذلك العهد يتعاشرون فلا يكادون يفترقون ، ويتشاركون فلا يكاد
يستأثرون أحدهم على صاحبه بمالٍ ولا ملكٍ حتى الجوارى والغلمان . ولا عجب
فكلهم خلعاء مجان مستهترون ، ليس فيهم إلا متظرفٌ منسوبٌ إلى الزندقة
حيث العقيدة متهمٌ في دينه . فلما قدم والبة إلى موطنه ومعه الحسن ، وجه
إلى أصحابه وندمائه ، فجعل لهم مجلساً احتفاءً بتلميذه ، ولبثوا أياماً في صَبوح
وغُبوق ، يسمرون ويتمازحون وينشدون الأشعار .

وكان والبة ماجناً طبعاً . وكان مضياعاً متخرفاً في النفقة على الجوارى

والغلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقة مبدولة للشرب المندمين ، وعلى اخوان ممدوداً للاخوان المؤاكلين . حافلاً بكل ما لذ وطاب من غير حساب . وهو مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه فى العطاء ، فلقد فاتته الحظ فى منادمة الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدي لبعض أشعاره ، كراهة منهم لإسفافه فى أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره فيها . وإما كان يقصد إلى من يشاكله من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا لا تدوم لهم دولة . ولا يُقامون بعملهم حتى يُصرفوا عنه ويُرأوا . فلم يكن له من معول على غير المحدودين من أقاربه ، ثم من هم أكثر منه حُظوة أو أقل تبذيراً من أقرانه . ومن ذلك ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبى بجير الأسدي عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذا كروه من قصده إلى الشاعر حماد عجرد يطلب إليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة إليه . ويقول الرواة فى ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم أصنع شيئاً » ، فدعا والبة بدواة وقرطاس وأملئ من كتب له هذه الأبيات :

حماد ما كانت عدا تُك بالعدات الكاذبه
فعلام ، يا ذا المكرما ت وذا الغيوث الصائبه
أخرت - وهى يسيرة فى الرد - حاجة « والبه »
فأبو أسامة حقه أخذ الحقوق الواجبه
فاستحي من ترزاده فى حاجة متقاربه
ليست بكاذبه ، ولو والله كانت كاذبه

فقضيتها أحمدت غيب قضائها في العاقبة
وبديهي أن حماد عجرد إنما يسمع لأول مرة من يمدحه وينعته نعت
دوى المكرمات الضافية والغيوث الصائبة ، فلا غرو أن قيل بعد ذلك إنه قضى
للمادح حاجته وزيادة .

وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الحمر في دساكر طيز ناباذ
بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى يسكر ، ولا يفيق من السكر إلا
ليعاود الشرب ، ويقيم على ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن »
إلى هذه الأماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا يني يغمر عليه الساق
فيسقيه حتى يتلف ، فإذا هو إلى جانبه سكران لا يعقل ولا يعي ما يفعل ،
قد خلع الحشمة وخبج . ولقد ذهب ذات مرة في المجون أن جعل والبة في
سكره يقبض على السكين ويهم بقتله ، لولا ما أظهر الفتى من سرعة البادرة
واستحضاره لمثل من الأمثال العائرة ضحك له أستاذه الخليع . وظل والبة
على هذه الحال مع تلميذه يحيف عليه بالشراب ويغريه بالمجون والاستهتار ،
حتى تم له مراده من توهين خلقه وإفساده .

وإذا كانت هذه المعاشرة لوالبة وأصحابه قد علمت « الحسن » الفساد
والعهر ، فقد هيأت له الاتصال بالشعراء ، وحفزته منادمتهم في مجالس السكر
إلى النطق بالشعر . ومما يروونه في ذلك أنه اجتمع وهو صغير في صحبة أستاذه
بالأقطاب الثلاثة حماد عجرد ومطيع بن إلياس ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكون
منا اجتماع في دار أحدنا » .

فقال حماد :

يا إخوتي عندي لكم بطة^(١) ودنُّ خمر من رساطون^(٢)
ولحم طيرٍ وأتابعه فإن نشطتم فأجيبوني

وقال مطيع :

اللهو عندي جميعاً حديثه وعتيقه^(٣)
وقرطقي^(٤) شهى^(٥) يفوح منه خلوقه^(٦)
والخمر عندي عتيق^(٧) يشقى القلوب غبوقه^(٨)

وقال يحيى بن زياد :

عندي نبيذ معسل^(٩) والموصلي^(١٠) وزلزل^(١١)
وبطة وخروف وماء مزن^(١٢) مزمل^(١٣)
وبربط^(١٤) وصنوج^(١٥) وصوت ناي وجلجل^(١٦)

وعندها التفتوا جميعهم إلى « الحسن » كأنما له - وهو الصغير الغريب

بينهم - دارٌ ومالٌ مثلهم، فأرتج عليه لحظةً ثم ضحك وقال :

لا تطيعوا في شرابي فتحصلوا في السراب
فدون خبزي ولحמי والخمر شيبُ الغراب

- (١) لفظ رومي معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل (٢) قرطقي أي نديم يلبس القرطاق وهو ضرب من القباء من زى العجم (٣) ضرب من الطيب .
(٤) الشراب بالعشى (٥) الموصلي وزلزل من أعلام الموسيقى والقناء
(٦) البربط نوع من العيسدان والمزاهر - والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر
تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار .

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادموا على الشراب .
وكان ينعقد لهم في كل يوم مجلس من هذه المجالس في عقر دورهم أو على
سطوحها أو في ظاهر المدينة بين البساتين أو في بيوت الحمارين . ولقد أفاد
الفتى من ذلك مرانةً على النظم وقدرةً على الارتجال ، وصار في مقدوره كلما
شاء أن يكون كلامه كله شعراً بغير جهد ولا معاناة . خرج يوماً مع والبة من
الكوفة يريدان الحيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص في الرمل وقد جاعاً، فدار
بينهما من المقال ما يدور في أمثال هذه الحال إلا أنه شعرٌ :

الحسن : ياليت فيما بيننا سِتَّةٌ أرغفةٌ ما بينها وَرَّةٌ
والبة : من وَرَأْرُضِ الصِّينِ يُؤْتَى بِهَا مشويةٌ تتبعها رَزَّةٌ
الحسن : خُوذَابَةٌ ^(١) ، تُؤْخَذُ مِنْ بَعْدِهَا خمرٌ من الحِيرَةِ المَزَّةُ
والبة : يَكْدِرُهَا سَاقٍ وقد شابهها من ماء مُرْنٍ صَوْبٌ مُؤْتَرَّةٌ ^(٢)
الحسن : طابَ لَنَا العِيشَ وَلَكِنَّا أَرَجَلْنَا فِي الرَّمْلِ مَرْتَرَةً ^(٣)

وجملة القول ، أنَّ تواترَ هذه المنادمات والمطارحات ، كان داعياً للحسن
على شحذ قريحته وإيقاظ ملكته إلى إدراك المعاني واقتناصها ، والاستعداد
لها باللفظ المناسب والقلب المحكم . فكان في كل يوم يزداد تمكناً من فنه ،
ويزداد معه ثقةً بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء ، بل جعل
يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقلّ عنهم .

(١) طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة فائرة (٣) مغروزة ثابتة

صبوات الصبا

كانت الكوفة في ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماع بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجلُّ المقينين بها وأكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن . وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت وأفانين الصناعة . وكانت ربيحة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء ليّنة . وكانت أوفرهن حظاً سلامة الزرقاء وكانت تخرج إلى المعجبين بها في إزار ورداء قوهيين^(١) موزدين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها ، وقد أشال نهودها ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبرٌ خفيف مخضرٌ ممتدٌ على شفتيها ، وكانما خطت طرقتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويتمصر عن كل ضرب من ضروب حسننها الوصف .

وهؤلاء الجوارى القيان قد شُهر بهنَّ الكثيرون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الإمارة . وكانت تبذل أموال عظيمة في شرائهن ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهن . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ، نقدَ فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشترط على القينة ليكونا لها إلا أن

(١) نسبة إلى قوهستان

تأخذها بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح بن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغنت الزرقاء ، فبعث معن إليها بدرة فصبت بين يديها ، فبعث روح إليها أخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع درهم فبعث بصك ضيعته .

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانه ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منبج مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهم على مرضاة هذا الشاعر أو ذاك لما فى الشعر من حسن الدعاية .

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدّم « الحسن بن هانىء » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة متهتكة ، أديبة متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان . فكان يعاطين هؤلاء المجان الزاح ، ويستحثن إليهم الأقداح ، ويسابقنهم إلى الشرب ويجالسهم متبذلات ، ويطارحنهم الجون والبذاء ، فضلا على اللعب بالعود والغناء . ولعل الحسن كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة المحرّبات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف

وولع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هي التي شئت لهن أن يصبحن معهن إلى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتي يغشين المجلس من تجاوزن غرارة الشباب وأدركن النضج ، ممثلة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لهن بالرجال ملابس وخلطة ، وقتلن الحب معرفة وخبرة ، حتى صرن أوفر نشاطاً وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فيجورهن وخلاعتن ومع ما يبدينه من تصنعهن وتكسرن وكثرة تضاحكهن . وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السن فإنها تختلف عنهن : مهففة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهي إلى الغزال أقرب منها إلى المهاة . وكانت حفرة مسيلة الهدب غضيضة الطرف ، خدّها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه أول خروج لها من خدرها . ولقد تلقى الجماعة لقاءهم لغيرها بالمرح والعبث شأن أهل اللهو ، إلا « الحسن » شدّ عنهم في هذه المرة ، وكأنما أنسى ما أخذه عنهم من العريضة والجحون . فبقى معهم سواد الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع أنه حاف على نفسه في الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم عجبهم له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يُلهِهم عنه ما هم فيه من السكر لآلئوا القتي في وجومه يلحظ الفتاة ويختلس إليها النظرة ، وهي على حيائها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة والإلحاف إلا النغبة بعد النغبة مستكرهة للشرب لم تتعوده تعود المتوفرات على مجالسه .

وقضى الجماعة والجواري سهرتهم على المألوف من سنتهم في المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم وبدا فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبح ثم تفرقوا . وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها ويديم التفكير فيها . ولعل الذى وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الفراة التى لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء حتى لقيها . وإنه ليحس نحوها بشيء لا عهد له به ، يسرى في كيانه وينساب إلى وجدانه ويمتزج بأجزاء نفسه ويخالط قواها .

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجواري في زوراتهن ، و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليله وأزقت عينه ، واشتدت به الحال وساءت صحته وشفة السقام . وزاد في بلائه كما زاد في عجبه أن رأى فتاته لم تنشب أن تعودت الشراب حتى انسأقت مع الجماعة ، منصرفة عما كان يبيديه لها من جد الحب ، مؤثرة لما هم بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدهمت في خاطره المعانى ، فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجدانى صادر عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى أعْبُ يستخفه الطرب^(١)
 إن بكى يحقُّ له ، ليس ما به لعب
 تضحكين لاهيةً والمحِب ينتحب

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبي .

تعجبين من سقمى صحتى هى العَجَبُ
كلما انتفى سببٌ منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة وانقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرها
وحلّت أخريات محلّها ، شأن من يتعرض لهذه الحياة الطائشة المتقلبة
وينزلن فى غمارها .

ولكن الفتى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة إلا بعد توكيد العبرة .
فقد اقترن فى نفسه ما كان من أمه وتقربها فيه وهو صغير إثارةً للتبعل ،
ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جدّ العاطفة
إلى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له فى بداية تكوينه من هذين رأى فى « المرأة
والحب والحياة » بقى فى نفسه وحسّه مثل وسم النار لا ينمحي آخر العمر .
ولقد استأنف الفتى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتذّ
طعمها . والذكري تراجع ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله فى سنّ
العشق ، لا بد أن يتحرّق من لابعج شوق . ومهما يكن فى هذه السن من غلبة
الطبيعة وتيقظ الحس ، فإنها أيضاً وأن تفتح العاطفة والاستجابة الوجدانية
لدواعى النفس .

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة حبه الصباني من
ملاسلها المادية ، وتحولت صورة الفتاة فى مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت
فى باطن وعيه وقرار سريره كمثل المجردة فى عالم المعانى .

واتفق وهو في هذه الحال أن قدم بصحبة والبة إلى منزل محمد بن سيار
ابن يعقوب، ولديه قيانٌ أخرجهن لندمائه، وجلس ابنه في صفهن وكان جميلاً
رائعاً في العين مع حسن موقع في النفس. فكان من فيض خاطر «الحسن»
وسبحاته العبقريّة إنشاؤه لهذه الأبيات الطيّفة الروحية.

يا ظبي ابن سيار وزينَ صفّ القيانِ
خلّقت في الحسن فرداً فما لحسنك ثاب
كأنما أنت شيء حوى جميع المعاني
لينعتنك وهي إن كلّ عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرة في بعض أوساط
الكوفة، فاتصل به أدباؤها ورغبوا في صحبته، فشاهدوا منه أدباً جمّاً، وكبراً
في أعينهم وعظم موقعه عندهم. وكان أشدهم شعوراً بعظم استعدادده وما هو
مدّخر له في مستأنف حياته، أستاذُه والبة بن الحباب، حتى عرض ذلك له
في الأحلام.

فانه - فيما يرويّه عن نفسه - يقول: كنتُ نائماً ذات ليلة، والحسن إلى
جانبي نائم، إذ أتاني آت في منامى. فقال الهاتف: «أتدرى من هذا النائم
إلى جانبك؟». قلت: «لا».

قال: «هذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس. أما والله لأفتنن
بشعره الثقلين، ولأغرين به أهل المشرق والمغرب».

فعلمت أنه إبليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »

قال : « عصيتُ ربِّي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا
ألف سجدة لسجدت » .

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضع الإحسان في قول ، فكان من ذلك
أنه - على صغره - لم يأخذ الشك في شعره ، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير
عليه لأحد ممن حوله كبير تقدم ومزية . فأدركته أنفة من الحياة التي يحياها
مع والبة . فاعتزم الرحيل ، وآذنه به ، معتذراً بالخروج مع وفدٍ لبني أسدٍ إلى
البادية في طلب شوارد اللغة والاحاطة بغريبها والتمسك من مذاهب الأعراب
في الجزالة وفحلى الكلام .

أثر البادية

أقام « الحسن » في البادية سنة أفادت روحه في أثنائها مسحة من روحها
واكتسب من صحة جوها بعض الصحة في جسمه ونفسه ، وزادت حياة
القطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد إلى البصرة من بعدها مثقل
الجبّة من مآثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقب
خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرّف أرضها
وسمائها ونباتها وحيواناتها ، حتى أصبح أعرف أهل الحضرة وأبصرهم بجمالها
وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد العصماء في بابي الصفات
والطرديات .

وتلقّى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل ، لما كانوا
يعهدون عنده من فرط الإعجاب بالوبة وتغنيه بشعره ولهجه بذكره قبل أن
يلقاه ، وكان ظنهم وقد آقّيه أنه غير مفارقٍ له العمر كله . فكان « الحسن »
أول عودته يسمع في كل خطوة من يقول له بعد تحيته : « أرغبت عن والبة
ومللت الكوفة !! » فيجيب موجزاً متادباً : « هي أجدى وأطيب من أن

تَمَلَّ ، ووالبة من لا يُرْغَب عنه ، ولكنى نَزَعْتُ الى الأوطان واشتقتُ الى الإخوان »

واستأنف « الحسن » في البصرة حياة الدرس والتحصيل . وكان لحقات الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن يغشاها ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد بلغ من ذلك أن تحدّث عنه جماعة من الرواة من شاهدوه في مستقبل أيامه فقالوا : « كان أقلُّ ما في الحسن قول الشعر ، فقد كان فحلاً راوية عالماً » .

والبصرة أسبق عهداً من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلمائها من أرسخ الناس في العلم قدماً وأغزرهم مادة وأولاهم بالثقة وأصحهم سنداً ، مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بني العباس لهم واتخاذ المؤدّبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصّريهم إياهم والسرعة الى تلبية الدعوة دون أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف إلى حلقات الدرس التي كان يختلف إليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحدٌ الى مثله ، وامتنع في اعتقاد القوم أن يلحقه أحدٌ من بعده ، فهو الإمام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم أنه كتاب سيبويه ، و « قرئ الكتاب » فلا يشك أنه كتاب سيبويه ، وكان

أشرف هدية تُهدى الى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظرة فيه .

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة الى البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثل « خلف الأحمر » . ولا جرم ، فقد كان شاعراً يعانى نظم القريض ويحسنه ولم يكن مجرد عالم بالشعر راوية له . وإذا كان الأقدم في أسناده والبة بن الحباب ، فإن خلفاً الأحمر كان هو الأكثر تأديباً وتخرجاً له .

و« خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة، وكان أوسع الرواة روايةً لأشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ، وما هم على شيءٍ أحرص منهم على نسيب « العباس بن الأحنف » الشاعر الغزل المعاصر ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلفُ الأحمر نسيب الأعراب حتى صار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ^(١) . وكان خلف يقول الشعر فيجيد ، وربما نحل الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لشاكلة كلامه كلامهم . ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون إذا روى خبراً أو أنشدهم شعراً ألا يسمعه من صاحبه . وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس ببيت شعرٍ ، من احتكام بعضهم إليه واستنصاحهم إياه . ولقد شاع في ذلك قول مروان بن أبي حفصة له : « نشدتك

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

الله يا أبا محرز ، إلا نصحتني في شعري ، فإن الناس يُخدعون في أشعارهم .
كما شاعت قصة ابن مناذر الشاعر وقد حضر مأدبة كان فيها خلف الأحمر
وتلميذه الأصمعي . فقال الشاعر خلف : « يا أبا محرز ! إن يكن النابغة
وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة . فقس شعري إلى شعرهم
واحكم فيها بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى العريضة . ثم أخذ صفحة
مملوءة مرقاً فرمى بها عليه ، فقال ابن مناذر مغضباً ، ولعله هجاه بعدها من
جراء ذلك .

ولم يكن خلف الأحمر ضئيلاً بشيء من أدبه على تلميذه « الحسن »
وإذا كان والبة قد جرأه على الشعر كما جرأه على السكر وهو غلام ماطر
شاربه بعد ، فإن خلفاً في تعصبه للجزالة وجودة السبك وتنطّسه في النقد ،
عمل على كف جماحه والزمه التريث والتثبت واستكمال أداته وتقوية ملكته
قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ
ألف مأثور للعرب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » . فعكف الحسن
يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوي الذاكرة ،
فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها » . فجعل خلف
يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر
قلب لا يخرم منها حرفاً . فلما أظهر الأستاذ أن ذلك حسبه وأن الذي أدام
التلميذ فيه مقنع وأي مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له في نظم الشعر .
فإذا الأستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف الأرجوزة .

كانك لم تحفظها» وكان الفتى جيد الحافظة بعيد النسيان ، فاحتج متعجبا :
 « هذا أمرٌ يصعب على » ، فإني قد أتقنت حفظها » فأصرَّ الأستاذ : « لا آذن
 لك إلا أن تنساها » . فذهب الحسن إلى بعض الديرة خالياً يتفرج
 وأقام مدةً حتى نسيها . ثم حضر فقال مؤكداً : « قد نسيتهما حتى كأن لم أكن
 حفظتهما قط » . عندئذ قال الأستاذ : « الآن إنظم الشعر » . ولقد روى عن
 شاعرنا أنه قال « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن
 الحنساء وليلي ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذي أخذ به الأستاذ تلميذه ظاهرٌ فيه أنه إنما أراد إلى
 تخريج شاعر لا راوية . ومن ثمة كان دفعه إياه إلى التكثر من المحفوظ ثم إلى
 تعمد نسيانه ، تحقيقاً للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير
 قتل للمسكة الشاعر المطبوع فيه .

ولقد جاءت أشعاره وهوفي كنف أستاذه شاهد صدقٍ على مبلغ ما كان
 من تأثره بالأساليب القديمة وشعر الأعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لأسعد بن عصمة المشهور بأبي البداء الرياحي
 وهو أعرابي نزل البصرة يعلم فيها الصبيان بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من
 الفصحاء ينقل الرواة عنه وروى له « الحسن » شعراً . ومن شعره يتغزل :

قال فيها البليغ ما قال ذو العسى ، وكلُّ بوصفها منطبق

وكذاك العدو لم يعد أن قال ل جميلاً — كما يقول الصديق

وقد أنت مرثية « الحسن » فيه — كما هو المرتقب لذلك الحين منه —

متوعةً ، عليها جفوةُ الأعراب وخسونةُ الجاهلية وعنجهيةُ البادية ، كثيرةُ
الغريب ، حوشيةُ اللغة . ومطلعها :
هل مخطئٌ حَتَفَه عَفْرٌ بشاهقةٍ رعى بأخياها شتًا وطباقًا
إلى أن قال :

زار الحمامُ أبا البيداء مخترمًا ولم يغادرْ له في الناس مطراقًا^(١)
ومن طريف ما ذكر أن الأستاذ الأحرار قال ذات يوم لتلميذه
الحسن ، ولعلها طريقة استحدثها لتخريجه : « إرثني وأنا حيّ حتى أسمع » .
فلم يُبهم الحسنُ أن جاء بمرثية لم يملك السامعون لها إلا استجاداتها ،
ولكنهم تعلّوا وقالوا له إن كنتَ قَلَبْتَ قَلْبُكَ في نحوها . فاعتزل وعمل فيه
أخرى . فلما أنشدها وقعتْ موقعَ سابقتها . فقال أستاذُه : « أحسنت والله » .
فقال الفتى مازحاً : « يا أبا محرز ! مُتْ ، ولك عندى خيرٌ منها » . فقال :
« كأنك قصّرت ؟ » . قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعْتُ الحزن ! » .
ولم لم يكن سبيلٌ إلى إرجاء الأستاذ حكمه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد
صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بني ! إن شعرك فوق سنك . ولئن عشت ،
لتكونن رئيساً في الشعر » .

وأما المراثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . وإحدهما رجزٌ ومطلعها
لو كان حيٌّ وائلاً من التّف لَوَأَلْتُ شَعْوَاءَ في أعلى شَعَفِ
والأخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها إلا أنها ليست رجزاً وهي

مُثَبِّتَةٌ فِي دِيْوَانِهِ كَأَخْتِهَا ، إِلَّا أَنَّهُ فِي هَذِهِ وَتِلْكَ آيَاتٌ لَا يَدُّ مِنْ إِيْرَادِهَا .
وَهِيَ قَوْلُهُ فِي الْأَوَّلَى :

أَوْدَى جَمَاعُ الْعِلْمِ إِذْ أَوْدَى خَلْفُ مَنْ لَا يُعَدُّ الْعِلْمُ إِلَّا مَا عَرَفَ
قَلِيْدَمٌ مِنَ الْعِيَالِمِ الْخُسْفُ فَكَلِمَا نَشَاءُ مِنْهُ نَعْتَرِفُ
رَوَايَةً لَا تُجْتَنَى مِنَ الصَّحَفِ

ومثله في القصيدة الثانية :

لَمَّا رَأَيْتُ الْمُنُونِ آخِذَةً كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَعْفٍ
بِتُّ أَعَزَّى الْفَوَادِ عَنْ خَلْفٍ وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا يَفِضُّ يَكِفُ
أَسَى الرِّزَايَا مَيَّتٌ فَجَعْتُ بِهِ أَمْسَى رَهِينَ التَّرَابِ فِي جَدَفٍ
كَانَ يُسْنَى بِرَفْقِهِ غَلَقًا فِي غَيْرِ عِيٍّ مِنْهُ وَلَا عَنَفٍ
يَجُوبُ عَنْكَ الَّتِي عَشَيْتَ بِهَا مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَشْفِيكَ فِي لُطْفٍ
وَلَا يَعْمَى مَعْنَى الْكَلَامِ ، وَلَا يَكُونُ إِنْشَادُهُ مِنَ الصَّحَفِ
وَكَانَ مِمَّنْ مَضَى لَنَا خَلْفًا فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ خَلْفٍ

وهذه الأبيات من المراثيتين أوردناها لأنها فوق بلاغتها بليغة الدلالة على
مكان خلف من شاعرنا الناشئ . ولقد كان التأليذ يكثر من ذكر أستاذهم
ويفاخر به . ولم يزل يقول فيه « جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ وَفَهِمَهُ » . وكان خلف
— كما تقدم — له حِذْقٌ بالشعر وطَبَقَةٌ فِيهِ ، وقد اجتمع له ديوان شعر حمّله عنه
« الحسن » .

كذلك كان التلميذ أثيراً عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسان أنه كان من أميل الخلق إلى « الحسن » وأنه يودّه أكثر من غيره من الشعراء . ولما كان خلف ولداً في الأشاعرة وكان أحد عمال اليمن وكان عصبياً ، فقد استدعى « الحسن » يوماً وقال له : « أنت من اليمن ، فتكنّ باسم من أسماء الذّوين » . والذّوون هم المصدّرة أسماءهم بـ « ذو » من ملوك اليمن . وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيّرّه ، فاختار منها « ذا نواس » . فكناه « أبانواس » . فصارت له كنيةً وغلبت على « أبي علي » كنيته الأولى . فهو منذ ذلك الحين إلى يومنا يُعرف بين الناس عوامهم وخواصهم « بأبي نواس » .

وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبي نواس في الأدب هي التي جعلته يدعو القتي إلى إظهار نسبته إلى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من شأنه ، تعصباً لها

والأنساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة . وقد وقع من ذلك للشعراء مادة لهجاء من يريدون هجاءه ، بالتفنيد لدعواه وتهجين نسبه بالحق وبالباطل .

وكان أبو نواس من نسل الموالي ، فادّعى في أول دعوته أنه من ولد عبید الله بن زياد من بني تميم اللات . ولكن شاعرنا لم يهنأ طويلاً بدعوته إذ قيل له إن الرجل الذي تدّعى إليه لا عقب له ، لأنه فلج ومات عن غير ولد .

فاستحى الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم ويراقبهم .
وأضى بعد ذلك صدرًا من عمره يخلط في دعوته . فتارة يدعى للنزارية
وينتسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على النزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة
« حَكَم » . وكان كلما ادعى لواحدة هجا الأخرى وأفزع في هجائها حتى
هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وغرهم له تلميحًا
ووقعهم فيه تصريحًا . ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبتى ، فإذا قىل له : « أنت مولى حَكَم ؟ » قال « أَجَل »
هو مولى الله - إذ كان به لاحقًا ، فالله أعلى وأجل
واضعًا نسبتَه حيث انتهى فإذا ما رابه ريبٌ رَحَل
ولقد ظل الرقاشى وأبو نواس يتهاجيان فما أمسك واحدٌ منهما عن
صاحبه حتى فرق الموت بينهما .

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :

وَيُنمى إلى حَكَمٍ دعوةً وما إن له نسبٌ فى حَكَمٍ

على أن المذكور فى أمر أبى نواس أنه كان بالفعل مولى الحكميين .
وهى قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكمى أمير خراسان وقد
كان جد أبى نواس من مواليه . ومن أجل هذا تكرر من الشاعر نخره باليمن
ومدحه اليمنية ، وإذا كان قد عرض لها بالشم مرة فذاك من حرّ غيظه وغليان
صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حذيج الكندى ، وقد قال فيه :

وَتَحَدَّثُ، حَتَّى يَخَافَ الْجَلِيسُ أَذَاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَدَّةِ
وَتَحْتَمُّ ذَاكَ بِفَخْرِ عَلَيْهِ بِكَنْدَةٍ، فَاسْلَحْ عَلَى كِنْدِهِ
وَلَمْ يَلْبَثِ الشَّاعِرُ أَنْ اعْتَذَرَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذْرِ ذَاكِرًا أَنَّهُ يَمْنَىُّ وَأَنَّهُ لَمْ
يَجَاوِزْ بِشْتَمِهِ الْيَمْنِيَّةَ أَنْ سَبَّ نَفْسَهُ وَأَهَانَ وَالِدَهُ :

فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشَّتْمِ وَالِدِي وَعِرْضِي، وَمَا مَزَّقْتُ غَيْرَ أَدِيمِي
وَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ أَبُو نَوَاسٍ فِي بَعْضِ دَعَاوِيهِ هَذِهِ يَتَاجَنُّ وَيَعْبَثُ عَلَى
عَادَتِهِ ، وَلَا سِيَّامَا أَنَّهُ كَانَ فِي أَثْنَاءِ هَذَا كُلِّهِ لَا يَنْسَى أَنَّهُ فَارِسِيٌّ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ
وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا خَشْيَةً أَنْ يُهْجَى بِهَا . فَكَانَ يَتَعَاجَمُ فِي شَعْرِهِ كَمَا سَنَرَى ،
وَقَدْ ذَهَبَ فِي آخِرِ أَمْرِهِ إِلَى هَجْوِ الْعَرَبِ أَجْمَعِينَ ، وَاسْتَنَّى فِي الشَّعْرِ غَيْرَ سَنَةٍ
شَعْرَانِهِمُ الْأَقْدَمِينَ .

ملحق التيارات

لقد كان المسلمون في صدر الإسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية إلى قبيل زوال الدولة الأموية تعدو المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف في الإمامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهاد في المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام إلا في أواخرها .

فلما استقرَّ الأمر للعباسيين صرفوا همهم عن الفتوح إلى توطيد دعائم الإمبراطورية العظيمة التي آلت إليهم ، فلم يُعرف لهم جهادٌ لنشر الدين وتوسيع حوزة الإسلام ، وإنما كانت حروبهم قمعاً لفتنةٍ في الداخل أو دفعاً لنكث العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج . وفي ظلال هذه الحال من إيثار السلام ومداومة الاحتجاج والاستجمام ، تعددت المرافق وكثرت الأرزاقُ واستبحر العمران واتسعت الحضارة ، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم على تحرّي ألوان المعرفة والتطلّع إلى بعيدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبي جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية في المنطقيات والرياضيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصرة الفرس للدعوة العباسية أن أحلّهم خلفاء بني العباس المحلّ الرفيع وردّوا عليهم اعتبارهم . لقد أدبّل للفرس في يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفء والعرب لا سيّد ولا مسود ، عقى الانقلاب العظيم على الفوارق ، فزالت من ألامهم العوائق وارتقوا إلى أسنى المناصب في الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتاباً ووزراء ، ومن اليهود والنصارى تراجمه وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل . ولا شك في أن السياسة الجديدة التي أخذت بها الدولة العباسية في المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعاً على امتزاج الحضارات وتزواج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيراً كبيراً ، وكذلك دخل عليهم منه شرٌّ مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظّر أهل الهند ، وأدّاهم هذا كله الى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عاداتهم في أول أمرهم ، من اصطناع الترف في اللبس والمأكل والاستهتار في الشرب ، والمجاهرة بما يستوجب الخد ، ومن الكلف الذي لا بعده كلفٌ بعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى في الأمور الدينية والعقائد الإيمانية

والأمثلة على ذلك في شعر أبي نواس كثيرة لا سيما شعره بعد زيارته لبغداد . فمن تعاجمه في شعره وتعصبه للفرس قوله في صفق دنانِ الحمر ومجانى الكروم :

إذا قام فيها الخالبون أتهم
بنجلاء ثقب الجوف درتها الخمر
مسارحها الغربي من نهر صرصر
فقطر بل فالصالحية فالعقر
تراث أنوشروان كسرى، ولم تكن
مواريث ما أبتت تميم ولا بكر
ثم قوله في صفة الغناء الذي يستجبه على الشراب المعتق :

فاسقنيها وغنّ صو تا - لك الخير - أعجما
ليس في نعت دمنة لا ولا زجر أشاما

وقوله يتمنى لو كان الأكَسرة أحياء وكان نديمهم :

فلورد في كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفاني دون كل نديم
ومثلها هذه الأبيات الرائعة في صفة دار من الدور الفارسية القديمة في
ساباط ، وقد شرب فيها الشاعر وحبّه بين آثار من سبقوا من الندماء الغطارفة
أبناء فارس ، ذا كراً لأيامهم ، ناظراً إلى الأطلال الناطقة بحضارتهم ، مجدداً
بالشرب فيها عهدهم :

ودار ندامي عطلوها وأدجوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان لحيّ ويابس
حبست بها حبي ، فجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك الحابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به - بشرقي ساباط - الديار البساس
أقنا بها يوماً ، ويومين بعده ، ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا السكاس في عسجدية حبّتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها معي تدريها بالقسي الفوارس

فللخمر ما زُرَّت عليه جيوهُها وللماء ما دارت عليه القلانس
وكذلك احتفاله بيوم النيروز من الأعياد الفارسية :
يُباكرُنا «النَّورُوز» في غَلَس الدجى بنورٍ على الأغصان كالأنجم الزهر
يلوح كأعلام المطارف وشيهُ من الصُّفر، فوق البيض والخضر والحمر
إذا قابلته الشمسُ أوما برأسه إلى الشَّرب أن سُرواومال من السكر

إسقنا ، إنَّ يومنا «يومُ رام» ولِ «رام» فضلٌ على الأيام
في رياض رَبعِيَّة بكر النَّور عليها | بمسْهل الغمام
فتوشَّت بكلَّ نورٍ أنيقٍ من فرَادى نباته وتؤام
فترى الشَّربَ كالأهْلَة فيها يتحسَّون خسروى المدام
والنَّيرُوز أو النَّورُوز عند الفوس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول
الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية «يومٌ جديد» لأنه يؤذن بمقدم الربيع
الذى يردُّ على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه فى التَّزَّه
والشرب فى الرياض . ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر
من شهور الفرس ، يلذَّون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ،
كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحبُّ أن يتزيا بزيمهم ويظهر للناس
أنه منهم .

ولاشك فى أن الحركة الشعوبية كان لها كبير أثر فى ذلك . فقد كان
للعرب افتخارٌ بأنهم خير أُم الأرض قاطبةً ، لما نشأوا عليه من الاستقلال

والعزة والمنعة في جزيرتهم ، وللصفات والعادات التي شاعت بينهم من إكرام
الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الأنساب ، وما كان عليه الأعراب من البديهة
وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اختصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن
البيان ، ثم ما كان من نشأة الإسلام فيهم وانتشاره على أيديهم . وقد ثقلت
هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتفجعة المتكررة .
وزادها ثقلاً أنهم لم يرضوا دعوة المفكرين المعتدلين إلى التسوية بين
المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . فلم يلبث هذا
التعنّت أن ثارت عليه نائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الإسلامية
فغالوا مثل مغالاتهم في الخط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا
يجهّنون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة في جاهليتهم ، ويعدّدون
مثالبهم من وأدهم الولد خشية الإملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ،
ويزرون عليهم جذب الأرض وبدادة العيش ، وذهابهم في المن من أجل طعام
أطعموه أو معونة بذلوها . وراحوا في الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان
عند الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر
وسحرها ، وصناعات الصين وفنونها ، وحضارة فارس وترّفها . وجعلوا العرب
من ذلك أقلّ الأمم شأنًا في كل شيء ، وأضعفها استحقاقًا للتفاخر .
ونحن نرى شاعرنا أبا نواس في شعره دائم التعريض بالأعراب ، والمقابلة
بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية في حاضرها وماضيها :

دَعِ الرِّسْمَ الَّذِي دَثَرَا يِقَاسِي الرِّيحَ وَالْمَطَرَا
 أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كَسْرَى وَسَابُورٌ لِمَنْ غَبَرَا
 مَنَازَهُ بَيْنَ دَجَلَةٍ وَالْأَ فِرَاتِ تَفْيِئَاتِ شَجَرَا
 بَأَرْضٍ بَاعَدَ الرَّحْمَا نَ عَنْهَا الطَّلَحَ وَالْعُشْرَا
 وَلَمْ يَجْعَلْ مَصَايِدَهَا يَرَابِيعَا وَلَا وَحَرَا
 وَلَكِنْ حَوَرَ غَزْلَانٍ تَرَاعَى بِالْمَلَا بَقْرَا
 وَإِنْ شَتْنَا حَثْنَا الطَّيِّ رَ مِنْ حَافَتِهَا زَمْرَا
 وَإِنْ قُلْنَا اقْتُلُوا عَنْكُمْ يَبَا كَرِ شَرِبْهَا الْخَمْرَا
 فَذَلِكَ الْعَيْشُ لَا سَيِّدَا بِقَفَرَتِهَا وَلَا وَبَرَا

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التي لا تمت إلى بدو العرب بسبب ، وإنما هي من الخواضر الفارسية وطن « بنى الأحرار »^(١) كما شاءت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

بِلَادَةٍ لَمْ تَصِلْ كَلْبٌ بِهَا طَنْبَاً إِلَى خَبَاءٍ وَلَا عَبَسٌ وَذُبْيَانُ
 لَيْسَتْ لَذْهَلٌ وَلَا شَيْبَانِيَا وَطْنَاً لَكِنِّهَا لِبَنِي « الْأَحْرَارِ » أَوْطَانُ
 أَرْضٌ تُتَبَّى بِهَا كَسْرَى دَسَا كَرَهَ فَمَا بِهَا مِنْ بَنِي الرِّعْنَاءِ إِنْسَانُ

(١) (إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم « الأحرار » و « الأبناء » وكانو يعدون سائر الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب — وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً — تعاطفهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالحاربة في أوقات شتى) كتاب الفصل لابن حزم ج ٢ ص ٩١

وما بها من هشيم العرب عَرَفَةٌ ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جُلنارٌ قد تفرَّعه آسٌ ، وكلَّه وردٌ وسوسان
فإن تَسَمَّتْ من أرواحها نسماً - يوماً - تنسَم في الخيشوم ريحان

وكان مما يبغضه في العرب أنهم لا يفتنون يتفاخرون ، إلا يكن من
العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، فينهم وبين أنفسهم . فهم
أبدًا في شقاق وتعارٍ من العصبية القبليَّة ، لا يجتمع رجالان من قبيلتين حتى
يقوم بينهما الفخار وينتهى بهم آخر الأمر إلى التعدي والشجار . ويقول
أبونواس إنه من أجل هذا يؤثر صحة الأعجام ومنادمتهم :

نادمتهم أرتاضُ في آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسومُ
متوقِّرين ، كلامهم ما بينهم ومزمنين خفاؤهم مفوم
ولفارِسِ الأحرارِ أنْفُسُ أنْفُسٍ ونفارهم في عشرةٍ معدوم
وإذا أنادم عصبَةً عربيةً بدرتُ إلى ذِكرِ الفخارِ تميمُ
وعَدَتْ إلى قيسٍ وعدَّتْ قوسَهَا ، سُبَيْتُ تميمٍ وجمْعُهُم مهزوم !
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرًّا ، فمنطق شرِّهم مزوم
لا يبدخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العربُ اعتدتْ تسليمُ
وجميعُهُم لى - حين أقعدينهم - بتذلُّلٍ وتهيبٍ موسومُ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانية
عند وصفنا لحياته في دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا .

وأما إشارات الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم فقير قليلة .
ولا غرو فقد كان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور أول خليفة قُرب
المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدمين في هذا العلم نوبخت
المجوسى المنجم الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم
« أبو نواس » أوثق اتصال . وقد تُرجمت الكتب في الفلك وهيئاته
وأُخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها .

وقصيدة شاعرنا في مدح الوزير الشيخ يحيى بن خالد البرمكى مثال إذا
سقناه وحده فإنه يُغنى عن كل مثال بعده . قال يصف ممدوحه بالسقاء
والشجاعة :

صورة المشتري لدى بيت ثور الـ	يل والشمس أنت عند انتصاب
ليس (زاوئش) حين سار أمام الحـ	وت والبدر إذ هوى لانتصاب
منك أسخى بما تشحُّ به الأـ	فس عند انتقاص درّ الحلاب
لا وبهرام تستقل به العـ	رب بالليل زائداً فى الحساب
منك أمضى لدى الحروب ولا أهـ	ول فى العين عند ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاوئش) Zeus لفظ يونانى وهو المشتري فى الكواكب
السيارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات .
وأما (بهرام) فهو المريخ بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية إله الحرب .
ومثل ذلك قوله يصف الحجر بالقدم :

تُخَيَّرْتُ ، والنجوم وقفٌ لم يتمكن منها المدارُ
وكان أصحاب الفلك يقولون إنه كان لدوران الفلك ابتداءً كان قبله ساكناً .
وفي كلام أبي نواس أيضاً إلامٌ بمبادئ الطبيعيات التي كانت بسبيل
« الشيوع في أيامه . فمن ذلك تصرفه في الكلام عن الطبائع الأربع التي هي
الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في قوله هازلاً يستغنى (أبا عيسى جبريل)
في الخبر :

سألت أخى « أبا عيسى »	و « جبريل » له عقل
فقلت « الخبر تعجبني »	فقال « كثيرها قتل »
فقلت له « فقدّر لى »	فقال وقوله فصل :
« وجدت طبائع الإنسا	ن أربعة هي الأصل
فأربعة لأربعة	لكل طبيعة رطل »

وقوله هاجياً زهير المغنى :

قل زهير إذا اتكا وشدا	« أقلل أو أكثر ، فانت مهذارُ
سَخُنَتْ من شدة البرودة >	تى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى	كذلك الثلج باردٌ حار »

ففي ذلك التفاتٌ إلى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشيء إذا
زاد في البرد تحول إلى الحرارة بدليل أن الصندل الأبيض إذا أفرط في حركه
عاد حاراً مؤذياً .

وأخيراً يقع القارىء في شعره هنا وهناك على ألفاظ من مصطلح المتفلسفة
مثل قوله يصف ما صيره إليه تريح العشق من النحول والضنى .

تركت مني قليلاً من القليل أقلَّ
يكاد لا يتجزأ أقلَّ في اللفظ من « لا »

وقد زعموا أن إبراهيم النظام المعتزلى لما أن سمع ذلك منه قال له : « أنت
أشعر الناس في هذا المعنى . والجزء الذى لا يتجزأ ، منذ دهرنا الأول نخوض
فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت في بيت واحد » .

ولقد كثرت في الحواضر الإسلامية الشكاك والدهريون ، ومروجو التعاليم
اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيا
المانوية ، فكانوا يتصلون بالناشئة يزنبون لهم المروق والاحاد ويفسدونهم .
ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذٍ لكان بلاء الإسلام بهؤلاء أشدَّ
وأُنكى . ومن هؤلاء الدعاة إلى الزندقة في البصرة عبيد الكريم بن أبى
العوجاء . وقد تصدَّى له شيخُ المعتزلة عمرو بن عبيد فقال له مهدداً متوعداً :
« قد بلغنى أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتَسْتَنْزِلُهُ وتُدْخِلُهُ
دينك . فإن خرجت من مِصرنا (يعنى البصرة) وإلا قتُ فيك مقاماً آتى
فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وإمام المعتزلة واصل بن عطاء على المتنف
بالشاعر الأعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة . فلما رجع إليها عند
موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية ، وظل بعيداً عنها إلى

أن مات المعتزلى في أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعائها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلها على حربها وكثرة المقال لمناهضتها ، ومن مصنفاته كتاب فيه ألف مسألة للرد على المانوية . كما أنه صمد من معتزلة الجليل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولقب بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين . وكان للعلاف بصر^١ بالفلسفة اليونانية وكان في احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها . ولعل في الأبيات التي هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحق صورة لما كان شاعرا في أوهام الناس عن عقائد المانوية في ذلك العصر :

جالستُ يوماً « أباناً »	لا دَرَّ دَرٌّ « أبان »
ونحنَ حَضَرَ رواقِ الأ	مير بالهروان
حتى إذا ما صلاة ^(١) الأ	ولى دَنَتْ لأذان
فقام ثمَّ به ذو	فصاحة وبيان
وكلمًا قال قلنا ^(٢)	إلى انقضاء الأذان
فقال ^(٣) : « كيف شهدتم	بذا ، يغير عيان ؟
لا أشهدُ - الدهر - حتى	تُعَاين العيان »
فقلتُ : « سُبْحَانَ رَبِّى ! »	فقال : « سُبْحَانَ مانى ! »

(١) صلاة الأولى يعنى بها صلاة الصبح (٢) كلما قال المؤذن قولاً رددناه بعده
(٣) أى فقال أبان اللاحق كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا إله إلا الله ، » أشهد أن محمداً رسول الله » ولستم للأمر بشهود عيان

فَقُلْتُ : « عيسى رسولٌ » فقال : « مِنْ شَيْطَانٍ »

فَقُلْتُ : « موسى نبيٌّ » مهيمِنُ المَنَانِ

فَقَالَ : « رَبِّكَ ذُو مَقَّةٍ لَمَّةٌ إِذَا وَلَسَانُ ؟ »

أَنْفَسُهُ خَلَقَتْهُ أَمْ مَنْ ؟ » فَقُمْتُ مَكَانِي

عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى^(١) بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ

يُرِيدُ أَنْ يَتَسَوَّى بِالْعَصْبَةِ الْحِجَانِ

بِعَجْرِدٍ وَعُبَادٍ وَالْوَالِيَّ^(٢) الْمُهْجَانِ

وَقَاسِمٍ وَمُطِيعٍ رِيحَانَةَ النَّدْمَانِ

وكانت خراسان كهدها منبت الكثير من الدعوات ومرتعاً لدعاتها . وقد ظهر فيها في أوائل عهد الخليفة المهدي دعيٌّ من أهل مرو يسمى حكيماً ، وكان أعور قصيراً مشنوء الخلق ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من ذهبٍ فتقنع به لئلا يرى ، فلقب بالمتنع . وكان يدعى الألوهية فيزعم أن الله خلق آدم وتحول في صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحول في صورة نوح وهلم جراً إلى أن حل في أبي مسلم الخراساني ومن بعده حل فيه . وهو يقول بالتناسخ ، وكانت تعاليمه إباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع إليه خلقٌ

(١) يتمرى بالكفر يتزين به أى يتخذ زينة

(٢) الوالي هو والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم بن زرقطة ومطيع بن إياس

كثير غلب على عقولهم بالتوبيهات . ولم تتمكن جيوش الخليفة منه إلا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضايقوه واستمالوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساء وأهله ، فشرب وإياهم السم ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول « من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار » . وكان ذلك مما زاد في افتنان من بقي من أصحابه . وبلغ من شيوع الزندقة في خراسان وفارس والعراق في أواخر أيام المهدي أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجدد في طلب الزنادقة وولى أمرهم « عمر الكوازي » ليفرغ لهم ويمعن في البحث عنهم في الآفاق لينكل بهم شر تنكيل ، ولما مات ولى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بمحمديه » .

ويخلص من هذا جميعه أن حركة الزندقة كانت من الشدة بحيث دعت إلى مقاومتها بقوة السيف وقوة الحجّة . وكان المهدي صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفي ذلك يقول المؤرخ المسعودي : « إن المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم وإعلانهم باعقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والقهلوية إلى العربية ، وما صنّف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد مجرّد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية . فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف

الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكِّين »

وكان أبو نواس ممن اشتهاوا الكلام وجالسوا المتكلمين . ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيره ، فان هذا العلم إن يكن بإضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض إيماناً على إيمان ، فإن تعرُّضَ مثل شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أداه الى شيء من الزندقة . ولقد أقرَّ على نفسه بها في هجائه لابراهيم النظام المعتزلى :

قولاً لإبراهيم قولاً هتَّراً غلبتني زندقَةٌ وكُفراً

ولقد استمر الجدل بين القائلين باختيار الإنسان لأفعاله ، وحرية إرادته لها وقدرة عليها ، وهم المعروفون بالتدريسية ، وبين الذين لا يُثبتون للإنسان فعلاً ولا قدرة على الفعل ، ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية . وهو جدال ذو خطر كبير لا اتصاله بالعدل الإلهي من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعيَتْ أبا نواس متابعتهم ، فلم يلبث أن وقف من البحث عند حدِّ التجربة المادية والملاحظة الحسية في قوله :

ياناظراً في الدين ما الأمر ؟ لا قدرٌ صحَّ ولا جبرٌ

ما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموت والقبر

وحسبُ القارىء في زندقته شهادةً فيلسوف الشعراء أبى العلاء المعرى إذ يقول في رسالة الغفران : « ولا أرتاب في أن دُعْبلاً كان على رأى

الحَكَمَى (أبي نواس) وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة «
وفي موضع آخر منها « وقد اختلف في أن أبا نواس ادعى له التأله ، وأنه كان
يقضى صلوات نهاره في ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »
على أن أبا العلاء على عادته في التشكك وعدم الجزم يقول في نفس الرسالة
« وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن
قبله ووصفهم بالزندقة . وسرائر الناس مغيبية وإنما يعلم بها غلام الغيوب »
وأياً كان الرأي ، فإن الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول في هذه الموضوعات
ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبي العلاء ، بل تحرز ما استطاع
من أن يذهل فيها عن نفسه عملاً بوصيته لغيره :

مُتْ بَدَاءَ الصَّمْتِ خِي رُكْ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْجَمَ فَأَهُ بَلْجَامِ
على أنه مع ذلك كان لا يملك لسانه من الخروج عن حد الأدب والمساس
بحرمة الدين وهو في حالة سكر أو في سياق مجنون .

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ
الحديث بالبصرة ، إذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث
ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة
وليمض » . ففعل الناس ذلك ، حتى انتهى الى أبي نواس ، فقال : « سل يا فتى »
فتعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كان الجمار عند شاعرنا فأسمعه هذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الأخير ، قال له الجمار : « يا هذا ، إن لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في نفسك ، ودع الإفراط في الجون ، واكتمها » . فقال أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خوفاً . وإن قضى شيء كان » . فسمى الخبر الى الوزير الفضل بن الربيع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حبس .

بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طوال حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه ، مثل قوله :

استقنيها ملاً وفاء لا أريد المنصفاً
وضع الزق جانباً ومع الزق مصحفاً
واحس من ذا ثلاثة وأتل من ذاك أحرفاً
خير هذا ، بشر ذا ، فإذا الله قد عفا

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو . وقد ألقى أبو نواس في سجن الزنادقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عجرد فقال في وصفه : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لجونه في شعره ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذاله شعر مزاج بيتين بيتين يقرءون به في

صلاتهم » . ولا شك عندنا في أن القارى لهذا الحديث يستشعر منه استنكار
الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد مجرد حقيقة لا هو . وأكبر الظن
أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة ، وإنما كان يظهر الزندقة تظرفاً .
وليس هو في ذلك نسيج وحده بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح
العصر . وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر في محمد
ابن زياد :

يا بن زياد ، يا أبا جعفر ! أظهرت ديناً غير ما تخفى
مَزْدَقُ الظاهرِ باللفظِ في باطنِ إسلامِ فتى عَفٍ
لست بزنديقٍ ، وليكنما أردت أن تُوسَمَ بالظرفِ

الحُبُّ الأوَّلُ والآخِرُ

كل جنس مدفوع إلى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية
الأمرة التي أودعها خالق النسم كلَّ نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . وإذا
كان أمر من الأمور في غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على
الأحياء من سلطان . ولا بدع فهي صاحبة الشأن الأول في نظام الوجود ،
وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الإنسان الأولية ، ثم لا يست أولى شعائره
الدينية .

فهذه الغريزة عميقة أيا عمق ، وعامة كل العموم ، وهي تشغل حيزا
كبيرا من اهتمام الإنسان وإن يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل
وهي بعد مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياناتا الحسى والعاطفى
والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة
متأثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما أن الغلوب لا يبرح على كل
حال حتى الجذوة كامن القوة

والصبي إذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد

يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسةً يُشبع بها هذا السعار الجنسي ويرقه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسديةً على حالها ، فإن كثافتها لتلطف ، وإن حواشيها لتتلون بألوان الطيف ، وتتسربل أعطافها بأبراد الخيال ووَشَى الشعر . وذلك إلى أن المرء له إلى كيانه العميق السفلى كيانٌ رفيعٌ علوى ، يقتضى التعاطفَ بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاجٍ ومزاج . وهذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهون على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل أنفسهم أطيب ما تكون بالبذل والمفاداة وإنكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السماوى وذلك القرار الأرضى صلة غير مقطوعة ، كالزهرة أصولها مطمورةٌ فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الخليطة ما تزكو به الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبة . فإذا ما ترقى بها الإنسان إلى الحب كان شوقه دائماً ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتُنقع غُلته ، بل لعله مع القرب أبقي شوقاً وأشدَّ هياماً على حد قول ابن الرومى :

أعانقها - والنفس بعدُ مشوقةٌ	إليها - وهل بعد العناق تدان !
وَألم فاهها ، كى تزول حرارتى	فيشتد ما ألقى من الهيام
وما كان مقدار الذى بي من الجوى	ليشفيه ما ترشف الشفتان

كَأَن فَوَادَى لَيْس يَشْفِي غَلِيلَهُ سَوَى أَن يَرَى الرُّوحِينَ تَمْتَزِجَانِ
وهذه الصورة أَصَحُّ مِثَالٍ عَلَى الْحُبِّ فِي حُدِّهِ الطَّبِيعِيِّ السَّلِيمِ . فَلَيْسَ فِيهِ
إِنْكَارُ الزَّهَادِ لِلْجَسَدِ وَانْصِرَافُهُمْ عَنْ ظَاهِرِ الْحَسِّ ، وَفِيهِ مَعَ هَذَا شَوْقُ
الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْحَسِّ وَحُتْنُهُمْ إِلَى الْإِتِّحَادِ بِالرُّوحِ وَالْفَنَاءِ فِي الْمَحْبُوبِ .
وَمَا كَانَ شَاعِرُنَا أَبُو نَوَاسٍ عَلَى اسْتِهْتَارِهِ كَسَائِرِ الْخُلَعَاءِ الْمَجَّانِ فِي اللّهُوِ
وَالشَّرَابِ وَمَصَادَقَةِ الْفَتَيَانِ ، بِالَّذِي يُخْرِجُ وَقَدْ بَلَغَ مِبَالِغَ الرِّجَالِ عَمَّا لِلْحُبِّ
الطَّبِيعِيِّ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ مِنْ غَلَبَةِ عَلَى الْحَسِّ وَسُلْطَانِهِ عَلَى النَّفْسِ .

فَاتَّفَقَ لَهُ أَن كَانَ فِي الْمَرْبَدِ جَالِسًا مَعَ شَبَابٍ مِنْ آلِ ثَقِيفٍ يَتَمَتَّعُونَ وَهُوَ
يُنْشِدُهُمْ مِنْ أَشْعَارِهِ ، إِذْ مَرَّتْ بِهِمْ جَارِيَةٌ أَفْرَغَتْ فِي قَالِبِ الْجَمَالِ ، سَوِيَّةَ
الْحَلَقَةِ بِدِيعَةِ التَّقْطِيعِ ، مِيسَاءَ مَعْتَدَلَةِ الْقَوَامِ .

فَوْقَ الْقَصِيرَةِ ، وَالطَّوِيلَةِ فَوْقَهَا دُونَ السَّمِينِ ، وَدُونِهَا الْمَهْزُولُ
وَقَدْ أَبْرَزَتْ عَنْ وَجْهِهِ وَضَاحٌ ، أَزْهَرُ اللَّوْنِ ، رَفَّافُ الْبَشَرَةِ ، حُلُولُ الْمَلَامَحِ ،
عَبْقَرَى الْمَعْنَى . فَجَعَلَ يَنْظُرُ مَأْخُودًا إِلَى ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الرَّائِعِ وَالْحَسَنِ الْبَارِعِ
وَهِيَ مَاضِيَةٌ فِي طَرِيقِهَا لَا تَلْتَفَتُ ، قَاصِرَةُ الطَّرْفِ ، مُسْبِلَةُ الْأَهْدَابِ .
وَمَا زَالَ يُتَبِعُهَا نَظْرَهُ إِلَى أَنْ غَابَتْ عَنْهُ . فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : « خَرَجْتَ عَنْ
حَدِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَنْتَسِبُ إِلَيْهِ يَا أَبَا نَوَاسٍ » يَشِيرُونَ إِلَى مَا عَرَفَ عَنْهُ مِنَ
الْغَزْلِ بِالْمَذْكُورِ . فَسَكَتَ لِحُظَةٍ لَا يُجِيبُ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

إِنِّي صَرَفْتُ الْهُوَى إِلَى قَمَرٍ لَا يَتَحَدَّى الْعَيُونَ بِالنَّظَرِ

إذا تأملتَه تعاظمتْ الـ إقرارُ في أنه من البشر
ثم يعود الإنكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصَّورِ
مباحةً ساحةً القلوب له يأخذ منها أطيبَ الثمرِ

وبقى بينهم ساهماً سحابةً نهاره ، حتى إذا أظلم المساء استعجل العودة
إلى بيته ليخلو إلى نفسه . لقد انطبعت هذه الصورة العابرة في قلبه بخطوط
من نور ونار ، ولن تفارقه في ليلٍ ولا في نهار . وهيهات بعد اليوم أن يطيب
له نومٌ أو يقرَّ له بال . إن أيا نواس اليوم غير أبي نواس الأُمس . هذا الرجل
الواقعي المستغرق في الحسِّ ، والمالجن المستهلك في اللهو والسكر ، والخلج الذي
لم يعرف الحبِّ ، قد شُغف اليوم حبًّا ، وأصبح بخيال هذه المرأة مستهماً
صبًّا . فليس شيء من مفاتن الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم
الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجدَّه بها وحنينَه إليها وهو لا يعرفها .
ولقد طال سؤالُ أبي نواس عنها وتسمُّه لأخبارها وجليَّة أمرها ، فلم يقع بعد
اليوم الذي رآها فيه على خبرٍ منها . فما أحالَه ذلك عن قصده ولا حبس من
عنانِه وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه في كَجج حبه ودأبه في طلبه :
كما لا ينقضى الأربُّ كذا لا يفتر الطَّبُّ

وتناقل أهلُ البصرة حال شاعرنا في حبها وأقواله فيها وأكثروا ذكره
في كل محفل وجمع .

ولم تكن هذه المعشوقة المجهولة إلا « جناناً » جارية آل عبد الوهاب

التقى ، وقد اتفقت الأقوال على أنها كانت مقدودةً حلوةً بديعةً الحسن ،
أديبةً ظريفةً عاقلةً ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . كما اتفقت الأقوال
على أن أبا نواس لم يصدق في حب امرأةٍ غيرها .

ولقد ذكرته لها نساءً من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن فيعبثن به
ويمازحنه . فخرجن يوماً وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما
رأها كاد عقله يذهب ، وتحيّر ، وأقبل وأدبر ، فذنت منهن واحدةً إليه .
فقال — « يا فتى ، أنت أبو نواس ؟ » .

فقال لها متلهفًا — « نعم ، أنا المعنى بمن لا ترثي لشكايتي » .

فقالت كالمتهكمة — « بالله أنت عاشق ؟ » .

فلم يمهلهما وبادر مؤكداً — « إى والله ! » .

فمضاحكت — « لمن ؟ » .

فأطرق مردداً — « لمن لا يعلم ما بى ، ولا أعلم من هو » .

فقال في خبث — « فاجعلنى رسولاً إليه ، فلعل الله أن يمن على »

وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هى والله التى معك » وأوماً إلى جنان .

فانصرفت عنه إلى جنان وهى تضحك . فأعقبتهما بما دار بينهما وبينه .

فأنكرت ذلك عليها وقالت : « مثل هذا الكلب تطمعيه فى » وتولت
مغضبة .

وأتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسأل عن اسمها

فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضياً عن يومه ، قانعاً بما وصل إلى علمه ، وهو
يترنم « تبدت لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه
الواقعة ، وصوّر لنا إقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة في أتم
زينة ، يحفهن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضمخات بالعب يرززن من غُرَف الجنان
راضعتن من الصبا كأساً عقدن بها لساني
أقبلن من باب الرضا فة كالتماثيل الحسان
يحفهن أحور كالغزا ل أمرٍ إمرار العنان
يمشى بردف كالنقا يختال تحت قضيب بان
فاذا انجلت فجاملي كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرّف بآل عبد الوهاب الثقفي ، فعاشرهم ونادهم
توصلاً لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن منذر الشاعر الذي كانت
المودة بينه وبين عبد الحميد بن عبد الوهاب الثقفي مضرب المثل ، وكان أحدهما
لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل في ذلك أنهما كانا يسمران أحياناً إلى
الصبح ، فاذا انصرف عبد الحميد شيعه ابن منذر إلى منزله ، فاذا بلغه
وانصرف ابن منذر شيعه عبد الحميد .

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفح به
الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاقت صدره ، وصار كالمغلوب على أمره يؤوده
أن يمسك على ما في نفسه :

لَا يَمِجَنَّ حَرَمَةَ الْكَتْمَانِ رَاحَةً الْمُسْتَهَامِ فِي الْإِعْلَانِ
 قَدْ تَصَبَّرْتُ بِالسَّكُوتِ وَبِالْإِطْ رَاقِ جَهْدِي فَنَمَّتِ الْعَيْنَانِ
 تَرَكْتَنِي الْوَشَاةُ نَصَبَ الْمَشِيرِ نِ وَأَحْدُوثةً بِكُلِّ مَكَانِ
 مَا أَرَى خَالِيَيْنَ لِلْسَرِّ إِلَّا قُلْتُ مَا يَخْلُوانِ إِلَّا لَشَانِي
 ثُمَّ أَنْشَأَ يَشَبُّ بِاسْمِهَا وَيُظْهِرُهُ حَتَّى عُرِفَ بِهَا وَاشْتَهَرَ بِحَبْلِهَا . وَمِنْ إِيَّاهُ
 إِلَى اسْمِ « جَنَّان » وَصَفَتْهَا قَوْلُهُ :

لَمَّا تَكشَّفَ عَنِّي أَنْتَى كَلِفٌ كَشَفْتُ أَيْضاً لَهُمُ عَمَّنْ بِهِ السَّكَلَفُ
 جِيْمٌ وَجَدْتُ لَهَا نَوْنَيْنِ ، بَيْنَهُمَا - لَمَنْ تَهَجَّيْ اسْمَهَا أَوْ خَطَّهْ - أَلِفٌ
 يَضُمُهُ مِنْ تَقْيِيفٍ بَعْضُ دَوْرِهِمْ مَا بَيْنَكُمْ بَعْدَ ذَا التَّبْيَانِ مُخْتَلَفٌ
 وَاتَّفَقَ أَنْ تَزُوجَ عَمَّارَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيِّ بِرَجُلٍ مِنْ تَقْيِيفٍ يَدْعَى
 مُحَمَّدَ بْنَ خَالِدٍ ^(١) فَصَارَتْ إِلَيْهَا جَنَّانٌ وَصَيْفَةُ لَهَا . وَكَانَتْ مَوْلَاةَ جَنَّانٍ مُوسِرَةً ،
 وَعَلَى حِظِّ وَافِرٍ مِنَ الْجَمَالِ كَأَخِيهَا عَبْدِ الْمُجِيدِ الَّذِي قِيلَ إِنَّهُ كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ
 وَجْهًا وَأَدْبًا وَمَلْبَسًا . فَلَمْ تَزَلْ تَعْرِبُ بِهَا امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا « سُرُور » حَتَّى ارْتَضَتْ
 الرَّجُلَ وَهُوَ أَبُو أَوْلَادٍ خَمْسَةٍ ، ثُمَّ هُوَ فَوْقَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهَا كَفْوًا ، بِالنِّسْبَةِ
 لَجَلَّالٍ قَدَّرَ أَبُيْهَا عَبْدِ الْوَهَّابِ وَمَوْضِعَهُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَمَا لَأُمِّهَا « بَانَةُ بِنْتُ أَبِي

(١) جَاءَ فِي الْأَغَانِي فِي الصَّفْحَةِ ٧٧ مِنْ الْجُزْءِ ٢٠ أَنَّ عَمَّارَةَ تَزَوَّجَهَا مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَجَاءَ
 فِي الصَّفْحَةِ ٣ مِنْ الْجُزْءِ ١٨ أَنَّ زَوْجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الثَّقَفِيُّ . وَقَدْ أَخَذْنَا بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ
 يُطَابِقُ مَا جَاءَ فِي شَعْرِ أَبِي نَوَاسٍ . وَأَمَّا الَّذِي وَرَدَ فِي الصَّفْحَةِ ٤ مِنْ الْجُزْءِ ١٨ مِنْ أَنَّ
 عَمَّارَةَ امْرَأَةً عَبْدِ الْوَهَّابِ فَهُوَ خَطَأٌ صَرِيحٌ وَصَحَّتْ ابْنَةُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ .

العاص الثقفى « من بسطة الثروة ، فضلا على أنه لم يكن هواه فيها وإنما الشره إلى ما فى يدها .

ولقد شاء ل محمد بن خالد حفظه العاثر أن يكون جاره أبان اللاحق الشاعر وأن يكون عدواً له ، فنظم فى موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجو فيها ويحذر رها منه ويحضرها إلى مفارقتة :

لما رأيتُ البرَّ والشاره	والفرش قد ضاقت به الحاره
واللوز والسكر يُرمى به	من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا الملهين لم يتركوا	طبلاً ولا صاحبَ زمارة
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبة»	محمدٌ زوّجَ عمّاره ! «
لا عمر الله بها بيته	ولا رآته مدرّكاً ثاره
ماذا رأيت فيه ؟ وماذا رجّت ؟	وهى من النسوان مختاره
أسود كالسفود يُنسى لدى الـ	تمنور ، بل محراك قياره
يُجرى على أولاده خمسة	أرغفة كالريش طياره
وأهله فى الأرض - من خوفه	إن أفرطوا فى الأكل - سياره
ويحك ! فرّى واعصبى ذاك بى	فهذه أختك فرّاره
إذا غفا بالليل فاستيقظى	ثم اطفرى إنك طفّاره

ويقال إنه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هذه عمارة ، فعلت فى نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهتها مالا عظيما .

وكان زوج عمارة هذا بخيلاً شديداً البخل ، حريصاً غاية الحرص ، فيه
أثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل الأدب ، فليس لأبي نواس
أو غيره من الشعراء اتصالٌ ببابه أو سبيلٌ إلى قلبه . فلا جرم يستولى على
عاشق جنان عارضُ اليأس وشعورُ القهر :

رأيت هوى سيرته الوجيفُ وتحزبني إذا اعترضتُ ثقيفُ

فإن آتى - وذلك بعد كدٍ - فدارُ « محمد » ثم الوقوفُ

ولقد زاد محمدٌ أن عمد إلى بسط لسانه في أبي نواس والتسميع بمثالبه
وعوراتِهِ . فلم يسع العاشق إلا السكوت والإغضاء كرامةً لهوى جاريته
الحسنة :

سأترك « خالداً » لهوى جنانٍ وإن جلّ الذي عنه أتاني

فقلّ من بعد دما شئتُ ، أوزدُ فقد أمسيتَ مني في أمانٍ

لقد أغلقتَ بابك دون ظبيٍ ختمتَ بمقلتيه على لساني

ثم إن هذه المبالغة من مولى جنان في سترها والغيرة عليها غيرَ لم تؤثر
عنه على زوجه ، ألتقت في روع الشاعر أن مولاهما إنما يفعل ذلك لأنه يهواها :
مولى جنان وإن أبدى تجلده يهوى جنان فيرجوها ويخشاهما
مولائه هي « بالمعنى » وحق لها ، والناس يدعونها « باللفظ » مولاهما
وكانت جنان مع هذا التضييق عليها لا تخلو من الغدو والرواح لحاجاتها
وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصداً لها حيثما

ذهبت . فاذا شهدت عرساً لم يزل جالساً حتى تنصرف منه فيراها في ذهابها
ومنصرفها . وكان لا يراها إلا امتقع لونه ووثب قلبه في صدره لما يبدو من
جمالها في الحلى والخلل حتى لكانها العروس :

شهدت جلوة العروس جناناً فاستالت بحسبها النظارة
حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشارة
قال أهل العروس حين رأوها : « ما دهانا بها سوى عمّاره »
ويصور لنا أبو نواس في هذه الأبيات ما هو ملحوظ إلى أيامنا من
حرص النساء على عرض جمالهن في الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغفرن لها .
ولقد صور الوهم له في هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره
من جنان ، ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيداً من جهتها وعمداً .
ويروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت
والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها إلا اغتنمها حتى في المآتم . فلما مات بعض
آل عبد الوهاب الثقفي ، أشرف أبو نواس من دار على منزل الثقفيين وعندهم
المآتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفي يدها خضاب ،
فلم يَعه من هذا المنظر الفاجع الألم إلا النظر إليها سافرة الوجه كالبلدر ،
واستملاح هذا المتناثر المتحدّر من دموعها كالؤلؤ الرطب من عينين نبلاوين
لها كعيون النرجس ، واستظراف بناتها الخضوب كالعنب يواقع وهي تلتدم
خدين كالورد :

ياقراً أبرزه مأتمً يندب شجواً بين أتراب
يبيكي فيذكرى الدرّ من رجبٍ ويلطم الورْدَ بعنّاب
لا تبكٍ ميتاً حلّ في حفرةٍ وابكٍ قتيلاً لك بالباب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان خروجها الى عرس أو مأتم ، وقد لقيها أبو نواس مرةً خارجةً الى بعض المآتم بالبصرة وعليها قناعٌ وشئ رقيق . فاتبعها واحتال على شهود المآتم . فلما حسرت في المآتم عن وجهها ذهل الشاعر - كدأبه - من حسننها ، وخيل إليه أن المآتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يامنسى المآتم أشجانهم لما أتاها في المعزينا
حلت قناع الوشي عن صورة ألبسها الله التحاسينا
فاستفتنتهن بتمثالها فهنّ للتكليف يبكينا
حقّ لذلك الوجه أن يزدهى عن حزنه من كان محزوناً

واشتد وجد أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر إليها بمجامع عينيه إذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحياناً أقداحاً من النبيذ ليشدّ قلبه ويسكن ما به ، فلا يجسر مع ذلك على أن يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوماً إلى مولاها ، فشكاه إلى بعض إخوانه وسبّه عندهم

ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال علي مذهبه في هذه الفترة في الملاينة والمسألة .

مَنْ سَبَّيَ مِنْ ثَقِيفٍ فَاتَى لَنْ أَسْبَهُ
أَبَحْتُ عِرْضِي ثَقِيفًا وَلَطَمَ خَدِي وَضْرَبَهُ
وَكَيْفَ يُنْكَرُ هَذَا وَفِيهِمْ لِي أَحِبُّهُ ؟
لَأَوْسَعَنَّ بِحُلُمِي عَبْدَ الْحَبِيبِ وَكَلْبَهُ
وَلَا أَكُونُ كَمَنْ لَمْ يُوسِعْ لِمَوْلَاهُ قَلْبَهُ
فَقَامَ يَدْعُو عَلَيْهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ حَسْبَهُ !!

وعند أبو نواس إلى رسول أوفدها مرةً إليها ، فقالت جنان لها منكراً :
« واضيعته ! لم يبق لي غير أن أحب هذا الكلب ؟ » وذكرته بالتقييح
والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

كَسَرَ الْحُبُّ نَشَاطِي وَلَقَدْ كُنْتُ نَشِيطًا
جَاءَنِي عَنْهُ كَلَامٌ زَادَنِي فِيهِ قَنُوطًا
« واضياعاه ، أمثلي يُرْتَجَى فِيهِ خَلِيطًا ؟ »
لَوْ أَرَدْتَ الْوَصْلَ لَمْ تَجِ لَبٌّ مِنَ الْفَخْرِ شَرُوطًا
قَدْ رَأَيْنَا عَرَبِيَّاتٍ يُوَاصِلْنَ نَبِيطًا

وكان أبو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان
يشبب بهن من النساء ، غير محدود منها . وكانت كلما ذكر اسمها عندها سبته

وقالت : « فعل الله بالخَنَّث الكاذب في حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هذه الإساءات بأقوال له ، منها :

جنان تسبّني - ذُكرت بخير - وترعم أننى مدقّ خنيثُ
وأنّ مودتي كذبٌ ومينٌ وأنّى للذى أهوى بثوثُ
ولى قلبٌ ينازعنى إليها وشوقٌ بين أضلاعى حيثُ
وقوله :

أتانى عنك سُبُكٍ لى فسبّى أليس جرى بفيك اسمى ! فحسبى
تشابهت الظنونُ عليك فى ذا ، وعلمُ الغيب فيه عند ربى
وزالت عن هذا الماجن وقاحته واستطالته ، فاستخذى وركبه الحبُّ
بالذلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوته للحياة وافتتانه بالدنيا ،
فهو لزهدٍ جنان فيه قد زهد فى ملاذ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو مخلو
حياته منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة إليها .

زهدتُ جنانُ فى الذى رغبتُ إليها فيه نفسى
فرهدتُ فى الدنيا وصا رتُ مُنيّتى فى زورِ رمسى
وطويتُ عيني أن ترا نى عينها ، وأمتُ جرسى
كيلا يروّع ذلك الـ وجه المليح سماعُ حسّى
وطال على أبى نواس البلاء حتى لزمه الأرقُ وكاد يُجنُّ من الحب :
تناومتُ جهدى فلم أرقُدِ ونام الخلى ولم يسهدِ

وأنهض في طرباتٍ تهيم بجُ، وألزم طوراً فؤادي يدي
ولقد يهتف به داعي العقل أن يعدل عن هذا العشق الذي لا مطمع
من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعْ جَنَانًا وَحَبَّهَا عَنْكَ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا
لَا تَذْكُرْ بِنَفْسِكَ ۥ مَوْتَ إِنْ كَانَ غَافِلًا
أَنْتَ إِنْ لَمْ تَمُتْ بِهَا ۥ عَامَ لَمْ تَنْجُ قَابِلًا
رُحِمَتْ نَفْسُكَ الَّتِي ذَهَبَتْ عَنْكَ بَاطِلًا

ولكن هيهات أن يعدل عن حبها، إنه كالقضاء لا مفر منه ولا نجاء. ولقد
علمه حبُّها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن امتنع الصبر وعزَّه الرجاء :

أَيَا مُلَيْنَ الْحَدِيدِ لَعَبْدِهِ دَاوُدَ
أَلَيْنَ فُؤَادِ جَنَانٍ لِعَاشِقٍ مَعْمُودَ
صَبِّ حَرِيضٍ مَهِيضٍ نَاءَ طَرِيدٍ شَرِيدِ
حَرَّانَ يَدْعُو بَلِيلٍ يَا لَلْوَحِيدِ الْفَرِيدِ !

وظاهر من هذا كله أن جنان لم تكن مثل سائر جواري العصر ماجنة
وقاح الوجه ، متهتكة ، بل هي كما وصفنا فتاة عاقلة رزان ، غفيفة حسان
خفيرة قليلة الكلام ، وذلك كله مع جمال الحميا وحلاوة الملامح ولطافة
التكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام . فالشاعر لا ينيي يجمع في صفتها أنها
نزهة طرف وفتنة قلب ، وأنها ممتعة لا تالين لمريدها ولا تقر لما يُصنع بها .

وجه جنان سَراةُ بستان مجتمع فيه كلُّ ألوان
مبذولةٌ للعيون زهرته ممنوعة من أنامل الجاني
لست أحظى به سوى نظرٍ يشركني فيه كلُّ إنسان

ولقد أشار الشاعر إلى أن لها جمالا « غير معربد » في ختام أبيات له
من أمتع وأطبع ما قاله شاعر في وصف « الجمال » في أبدع مجاليه وأعجب
معانيه، وهو ذلك الجمال الذي لا يزال في عينك يتجدد، يُطالعك منه بمحاسن
ليست تنفذ، وكأن بعضها ينتهي وبعضها يتولد، ثم هو كلما عاودت النظر
إليه كان بالعود أحمد :

وذات خدٍّ مورّد فتّانة المتجرّد
تأمل الناس فيها محاسناً ليس تنفذ
الحسن في كل جزء منها معادّ مردّد
فبعضه في انتهاء وبعضه يتولد
وكما عدت فيه يكون بالعود أحمد
فاشرب على وجه بدرٍ ريان غير معربد

ومضى الشاعر يشبّب بها ويلهج بذكريها، ويشكو في شعره ما يجد بها
وما يلقى في حبها، ولا مسألة له إلا عنها، ولا حديث له إلا حديثها، حتى
عذله الناس في ذلك :

أما يفنى حديثك عن جنان ولا تبقى على هذا اللسان ؟
أكل الدهر قلت لها وقالت ؟ فكم هذا ! أما هذا بفان ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرهاً له نافرأ منه ، بل كان
يحمده لهم أحياناً ويستأنس به من الوحشة إليها ، لما يرد عليه في عذله من
ترديد اسمها والإلام بذكرها :

إذا ما عاذلي سَمَّا لَكِ قُلْتُ أَعِدْ ، كَذَا أَعِدْ
وَشُبُّ لِي بِاسْمِهَا عَذْلِي وَزِدْنِي ، ثُمَّ زِدْ وَزِدْ
نَهَارِي كُلَّهُ وَغَدًا وَبَعْدَ غَدٍ وَبَعْدَ غَدٍ

وقد كانت جنان كأحرّ الحرائر من النساء تتخرج من قول الشعراء فيها
والغزل بها والتصرّيح باسمها . وقد انتهى الى الشاعر كرهها لذلك ، فقال معتذراً :

طَفَلَةٌ كَالْغَزَالِ ذَاتِ دَلَالٍ فَتَنَةٌ فِي النَّقَابِ وَالْإِسْفَارِ
أَتَمَنَّى وَمَا بِكَفَى مِنْهَا غَيْرُ مَطْلٍ وَغَيْرُ سَوْءٍ أَنْتَظَرُ
ثُمَّ قَالَتْ « جَهَرْتُ بِاسْمِي فِي الشَّعْرِ رَفَهَلَا كُنَيْتَ فِي الْأَشْعَارِ »
قُلْتُ « إِنْ الْهَوَى إِذَا كَانَ بِالْصَّبْرِ وَهَى قَلْبُهُ عَنِ الْأَسْرَارِ
أَنَا جَارٌ لَكُمْ قَرِيبٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ يُغْنِي لَدَيْكَ حَقُّ الْجَوَارِ »

ثم استخفّه الوجد وولجّ به الحنين واهتاجه الشوق إليها ، فصاح صيحته :
جَنَانُ إِنْ جُدْتَ يَأْتُنَايَ بِمَا أَمَلْتُ لَمْ تَقْطُرِ السَّمَاءُ دِمَا
وَإِنْ تَمَارَيْتِ أَوْ تَمَادَيْتِ فِي مَنَعِكَ أَصْبَحَ بِقَفْرَةٍ رِمَا
عَلَيْتُ مَنْ لَوْ أَتَى عَلَى أَنْفُسِ الْإِنْسَانِ بَاقِينَ وَالْغَابِرِينَ مَا نَدِمَا

ولقد فعلت هذه التوسلات في نفس جنان واسمائها ، فصارت أميل
لناحيته بعد نبوّها عنه . ولقد مرت به امرأة ممن تداخل الثقفين ، فسألها

عنها وألحف في المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانسأقت إلى المبالغة والتزيد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتر الأوصال من الفرح فقالت : [قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم أنى أسمع : « ويحك ! قد آذاني هذا الفتى وأبرمنى ، وضيق على الطرق بجدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبي بذكره والفكرة فيه حتى رحته » ثم التفتت فرأتني فأمسكت عن الكلام] .

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة موضوعة . ولما قامت المرأة أنشأ يقول :

يا ذا الذى عن جنانٍ ظلَّ يُخبرنى بالله قُلْ وأعدْ يا طيب الخبر
قال : « اشتكتك وقالت : ما بليت به ! أراه من حيثما أقبلتُ فى أثرى
ويُعمل الطرف نحوى إن مررتُ به حتى ينجلنى من حدة النظر
وإن وقفتُ له كيما يكلمنى فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه حتى لقد صار من همى ومن وطرى »

واتصلت الرسائل بينهما حيناً . وكان من لهفته يتطلع فى وجه الرسول عند عودته ولا يمله ، ليسبق باللحظ والتوسم إلى ما يحمل له ، شراً أو خيراً ، قبل اللفظ به . ثم إنه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليتملى ساعة بالنظر إلى الموفد إليها . ويغلو به الوهم فى ذلك حتى يجد رسوله عند الإياب من لدنها أحلى طلعةً وأجمل نظرة ، فيقول :

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا ، فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنُ رَسُولِي وَفُزْتُ بِالْخَبَرِ
فَكَلِمًا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهَا رَدَّدْتُ شَوْقًا فِي طَرْفِهِ نَظْرِي
تَظْهَرُ فِي طَرْفِهِ مَحَاسِنُهَا قَدْ أَثَّرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثَرِ
خُذْ مَقَلَّتِي يَا رَسُولَ عَارِيَةٍ فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكَمْ عَلَى بَصْرِي

ومن شهود هذه الوفادات ، والرسل المختلفة بينهما غايات وأبحاث ، شيخٌ جليلٌ هو الشيخ محمد بن حفص بن عمر التميمي (أبو ابن عائشة) وهو وقتئذٍ يتولى القضاء بالبصرة ، وكان منصرفاً عن المسجد فرأى - فيما بين دار أبان ودار حمران - فتىً لَبِقًا ، دُمْنًا ، عليه ثيابٌ بيضٌ حسان ، وعلى رأسه قلنسوةٌ مضرّبةٌ ، واقفاً مع امرأةٍ يكلمها . فدنا الشيخ منه وقال له : « يا هذا إن كانت هذه المرأة منك بسببٍ ، فقد عرضتها للثمة ووقفها موقفَ سوءٍ وإن كانت غريبةً عنك فحقيقٌ عليك اتقاء الله وألا ترضى لغيرك إلا بما رضىته لنفسك » . فالتفت الفتى إلى الشيخ الذي يخاطبه ، وقال على الفور في أدبٍ وظرف : « القول ما قلت ، وأنا قابلٌ نصيحتك وغيرُ عائدٍ إن شاء الله تعالى » . فولى القاضى وجعل في طريقه يفكر في أمر الفتى فلا يدرى أىَّ شمائله يستحسن ، أسرع جوابه ، أم حسن مراجعته له بقلّة الخلاف ، أم ظرف لسانه . ثم دخل القاضى في المسجد الجامع وجلس ساعةً للقضاء والنظر في المظالم ، فلم يشعر إلا برقعة في الرقاع بين يديه وكان الذى جاء بها ابن عائشة ولده . وفتناولها ، وإذا فيها :

« يقول لك أبو نواس :

إِنَّ الَّتِي أَبْصَرْتَهَا سَحَرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ
لَيْسَتْ هِيَ الْقَصْدُ الَّذِي يُؤْمِي إِلَيْهِ وَلَا السَّبِيلُ
أَدَّتْ إِلَيَّ رِسَالَةً كَادَتْ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ
مَنْ سَاحَرَ الْعَيْنِينَ بِحُ ذَبْ خَصْرَهُ رَدْفٌ ثَقِيلُ
مَتَقَلَّدٌ قَوْسَ الصَّبَا يَرْمِي وَلَيْسَ لَهُ رَسِيلُ
فَلَوْ أَنَّ أَذْنَكَ بَيْنَنَا حَتَّى تَسْمَعَ مَا نَقُولُ
لَرَأَيْتَ مَا اسْتَقْبَحْتَهُ مِنْ أَمْرُنَا وَهُوَ الْجَلِيلُ
وَعَلِمْتَ أَنِّي فِي نَعِيمٍ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ »

فضحك الشيخ حين قرأها ، وقال لابنه : « قلْ له إني لا أعرض

للشعراء » .

أما ذلك « النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول » فذلك أن جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها . ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زُوراته لها نهائياً كما كانت قصارا . وظهرت فيها إحدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة - لا مجرد أنثى . فاذا بالملاحن الفاسق قد صار عاشقاً على طراز المتيمين العذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم في الحب من وطءٍ إلا الحديث والنظر . على أن جنان لم تلبث في تحرجه أن وجهت إليه « قد شَهَرَتْنِي فَاقْطَعْ زِيَارَتَكَ عَنِّي أَيَّامًا لِيَنْقَطِعَ بَعْضُ الْقَالَةِ » . ففعل محزوناً ، وكتب إليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا وبيننا - حين نلتقى - حسنٌ
 فليس يُفدى عينا معاينةً له ، وما إن تمجُّهُ أذن
 ويح تقيفٍ ماذا يضرُّهم إن كان لى فى ديارهم سكن
 أريبٌ ما بيننا الحديثُ ، فإن زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمن
 وقع بالرسائل يدسُّها إليها ويحتال على إبلاغها لها ، فكان يبالغ فى
 تديبها وتهذيبها ويكثر من التأنق فى عبارتها ، ليختلب الحبيبة ويسترضيها .
 وكان من ذلك ما لا بد أن يكون من كثرة الحو والإثبات فيها . فقام بنفسها
 - فى سوء ظنها به - أن كثرة التغير فى رسائله حاصلٌ من أنه ليس يصدر
 عن صدق شعورٍ وطبعٍ ، ولكنه التلقيق وتزوير القول . وفى ذلك يقول :
 غضبتُ لحوٍ فى الكتاب كثيرٍ قالت : « أراد خيانتى وغرورى
 كتب الكتاب على خلاف ضميره فالحو فيه لكثرة التغير »
 وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وتراعى
 الخبر إلى الشاعر من بعض رفاقه محمد بن زياد المعروف باليؤيؤ ، فقال شاعرنا
 للذى أخبره : « أما والله لا يفوتنى المسير معها والحج عامى إن أقامت على
 عزيمتها ، وما على من هذا » . فظنَّ مازحاً فى أول أمره . ولكنه سبقها
 إلى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحجَّ عمره ،
 وما أحدث عزمه إلا خروجها .
 ولقد شوهده فى الحج وقد أحرم : فلما جنَّ الليل على هذه الأرض المباركة

وقد ازدحمت بالمسلمين من أقطار الأرض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه
الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الإيمان ، واهتزت نفسه في جنح هذا
الليل لنجوى الغيب ، فسمع يلقي بشعر وهو يحذو به ويطرّب :

إلهنا : ما أعدلك مليك كل من ممالك

لبّيك ، قد لبيت لك وكل من أهل لك

لبّيك إن الحمد لك والملك ، لا شريك لك

والليل لما أن حلك والساجات في الفلك

على مجارى المنسلك ما خاب عبد أملاك

أنت له حيث سلك لولاك يا رب هلك

يا مخطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك

واختم بخير عملك لبّيك إن العز لك

والملك لا شريك لك والحمد والنعمة لك

وكانت سبحة من سبجات الروح التي لا يخلو أن تطرق النفس البشرية
مهما يكن من ضالها أو إنكارها في لحظة من لحظات الاتصال بالقوى
الغيبية العلوية .

فلما كان الطواف ، لقيه بعض أصحابه ، ثم فاتهم وقد همهم ، فإذا بهم
يروونه خلف امرأة ، ولا يكادون يرونها إلا خلفها . فلم يدروا من هي . فلما

صارا إلى الحجر الأسود فإذا بالمرأة تلثم الحجر، وإذا هو قد لثمه معها حتى ألصق
خده بخدها في زحمة الخلق . وتفظنوا لها فإذا هي جنان . فلما انصرفا ، لقيه
ممن راقبوه محمد بن عمرو الجاز (ابن أخت سلم الخاسر الشاعر) فقال له :
« ويحك ! في هذا الموضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يردك
حياء من الناس ! قدر أيتك وما صنعت اليوم » . فقال : « يا أحمق ! وحسبت
قطع المهامه والسباب والرمال إلا للذي حجبت له وإليه قصدت ! » . ثم
أنشأ يقول :

وعاشقين التفّ خدّاهما	عند التثام الحجر الأسود
فاستغيا من غير أن يأتما	كأتما كانا على موعد
لولا دفاع الناس إياها	لما استغفا آخر المسند
ظلنا كلانا سائر وجهه	- مما يلي جانبه - باليد
نفعل في المسجد ما لم يكن	يفعله الأبرار في المسجد

وعاد أبو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم تر أنني أفنيت عمري بمطلبها ، ومطلبها عسير
فلما لم أجد سبباً إليها يقربني ، وأعيتني الأمور
حجبت ، وقلت قد حجبت جنان فيجمعني وإياها المسير
وتابع أبو نواس بعد عودته إيفاد الرسل إلى جنان ، حتى أعيتها الحيلة

فيه ، فاستنظرته إلى أن يخرج زياد^(١) أخو مولاتها في سفر من أسفاره ،
ولم يكن ذلك إلا تعلقاً منها . فقد خرج زياد ، وانقضت الأيام في أثر الأيام
ولم توف له ولا خرجت لملاقاته . فكان يطوف بقصر التقيين كل يوم
على حد قوله :

أطوف بقصركم في كل يوم كأن لقصركم خُلق الطواف
وهو متطلعٌ متنظرٌ على غير جدوى :

جَفَنُ عيني قد كاد يس قَطُّ من طول ما اختلج
وفؤادي من حرٍّ حبه لك قد كاد أو نضج
خَبَرِني - فدتك نفس ي وأهلي - متى الفرج ؟
كان ميعادُنا خرو ج زياد ، وقد خرج
أنت من قتل عائدٍ بك في أضيق الحرج

وكانت جنان لا يزال يساورها ويتمثل لوهما ما هو متواترٌ شائعٌ من
عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جدِّ الحياة واسترساله مع المجانة والهزل .
فكرهت بعد هذا كله أن تكون مثله . ورجعت إلى عاداتها من مجافاته وسوء
ملاقة رسله ، وعادت تتهمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر التأذي من تهتكه
فيها وغزله . فقال وهو لا يكاد يكتُم غيظه :

وَأَبَايَ مَنْ إِذَا ذُكِرْتُ لَهُ وطولُ وجدى به تنقضى

(١) الأغاني في الصفحة ١٢ من الجزء ١٦

لو سألوه عن وجهه حجته في سببه لي ، لقال : « يعشقتني »
نعم ، إلى الخشر والتناد ، نعم أعشقه - أو ألفاً في كفني
لا تشنني - ويك - عن محبته ما دام روحي مُصاحباً بدني
أصيح جهرأ لا أستسر به عنفني فيه من يعنفتني :
« يا معشر الناس فاسمعوه وعوا إن جنانا صديقة الحسن »
ولقد غضبت جنان لذلك غضباً شديداً ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأصر
الرجل على حبه لها وتشبيهه بها :

أنا أهواك ، فموتى كذا إنتى لست بسال أبدا
بأبي - لا غمك الله - اصبرى إلزحى الهجران وارضى لى الردى
ورآها المسكين ذات ليلة فى منامه ، وكأنها قد صالحته ، فاهتاج شوقاً
إليها ، وكتب لها من فوره :

إذا التقي فى المنام طيقانا عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العينين ما بالناس نشقى ويلتذ خيالانا
لوشئت - إذا حسنت لى فى الكرى - أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلاحا فى الكرى وأصبحا غضبي وغضبانا
كذلك الأحلام غرارة وربما تصدق أحيانا

وأخيراً أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيّنت النية وزوجها على أن يُغيّبها
جنان عن الشاعر. وكان لمولى جنان أخ يُقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد

بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ،
ولكنه عبثٌ خرج منه . وكانت لأبي عثمان ضيعة بحكماء في ظاهر البصرة
فانتقلوا إليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر ولاع قلبه ، وانطوى منه على
شجو ناصب ، فكان لا يرى إلا هائماً على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب
البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية ، ويحتال
في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي مية ^(١) محمد بن
خالد ، وغنى عن البيان أن قصده كله التقصّي عن جنان ، وما كان ذلك
ليخفي على واحد ممن كان يتوجه إليهم بالسؤال :

أسأل القادمين من حَكَمَانَ « كيف خلقتما أبا عثمان ،
وأبا مية ^(١) المهذبَ ولما مول والمرتبجي لريب الزمان ؟ »
فيقولان لي : « جنانٌ كما سرَّ لك من حالها ، فسَلْ عن جنان »
ما كُفِّمَ - لا يُبارِك الله فيهم - كيف لم يُغنِ عندهم كتمانى ؟
وما من ريب في أن أبا نواس كان حقيقاً بأن تنصلح حاله ويستقيم
طبعه وتحمد سيرته ويصح دينه ، لو أن علاقته بجنان في عقلها وكال أدبها

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لأبي عثمان)
ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها أن أبا مية هو نفسه
زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧
من أن أبا مية (أمية) اسمها خالد ، ولشاعر بن منذر فيه أبيات مذكورة تشير إلى أنه
كان يخطب نساء ثقف فيرد لفقره - وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور)
في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان .

قد دامت له ، وأدّت إلى نتیجتها الطبيعية من اقترانه بالمرأة التي يحبها ،
والاستقرار بالحياة الجنسية في كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له في عينها . ولكنها
هي وجميع من حولها - لسوء حظه وتعسه - لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدقوا
أن جنان منه في موضع عشق ولا عشرة ، أو أنه يخلص يوماً في حب المرأة .
وحسبنا في الدلالة على الأثر الطيب الذي كان لهذه العلاقة في صلاح
سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانٍ خلعتُ عن رأمي عناني ،
وركبتُ ما أهوى وكُم أجفو مقالةً من نهاني ،
وخرجتُ أخبط سادراً لم أُغنَ عن حبِّ الغواني .
وقد تبين أيضاً أثر ذلك واضحاً في شعره ، حتى أخذ عليه بعضهن سكوته
عن تصوير محاسن الأجسام ونعت الخمر إلى وصف الجوى وشكوى الهجر :
وقائلة لي « كلُّ شعرك في الهجر ! » فقلت « برغمي حيث سار به شعري
تشاغل بالهجران ممن أحبه ، وقد كان يحلو بالمحاسن والخمر »
فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع
منه رجاءه ، لم يطق المقام في البصرة ، فأزمع الرحيل ، وكان برغمه التوديع :
كفى حَزْناً ألا أرى وجهَ حيلةٍ أزور بها الأحباب في حَكَمَانِ
وأقسمُ لولا أن تنال معاشرُ جناناً بما لا أشتهى لجنان ،

لأصبحتُ منها دانيَ الدار لاصقاً . ولكنّ ما أخشى - فُديتِ - عداني .
أراني انقضت أيامُ وصليَ منكمو وأذن منكم بالوداع زماني
فواخذنا يومى إلىّ به الورى ويصبحُ مأثوراً بكل مكان
ونزح أبو نواس يطلب ودّ الملوك في بغداد . ويخطى من يحسب هذه
الدنيا الزاخرة الشائقة التي هو مقبلٌ عليها بالتي تذهله عن جنان . وحسبنا في
ذلك اعتراف الشاعر نفسه « وخرجتُ إلى بغداد وفي نفسي بقايا من حبها ،
ما فارقتني ولا تفارقتني إلا مع خروج روحي » .

في طريق بغداد

خرج أبو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد اسودَّت في عينه
مجالها ، وضاقَتْ به مغانها . فغادرها مدَّعيًا الكره لها والتنكر لأهلها . ولا
شك في أنه كان يجد للذكرى وجداً عظيماً ويحسُّ لها مضاً أليماً ، حتى بلغ في
طلبه النسيان أنه عمد الى المراسلة بينه وبين خاصة الإخوان في البصرة
فقطعها :

قولا « لعباس » لكي يدرى	اغلام عكِّ قدوة المِصرِ
« فيم الكتابُ إلىَّ تخبرني	بسلامة - في البطن والظهر
فاقطع بسيف صارم ذكر	أسباب كتب بيننا تجرى
فإن امتنعت فلا مواترة	حسبي كتاب منك في الدهر
واجمع حوائجك التي حضرت	عند الكتاب إلى - في سطر
ما ذاك إلا أنني رجل	لا أستخفُّ صداقة البصري

على أنه غير قمين بالقارئ أن ينخدع بهذا القول في حالة السخط واليأس
فقد عاد الشاعر يحنُّ الى موطنه في البصرة . ويشتاق منازلها ومعاهد صباه فيها

ولكنه كان يتكلف الصبر ، ويلزم نفسه السلوان ، متلهياً بالشرب والقصف
في الحانات والمتنزهات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلى ، وأفوت الكُتبُ منى فالمرُبدان ، فاللببُ
فالمسجدُ الجامعُ المروءةِ والد ين عفا ، فالصَّحان فالرحبُ
منازلُ قد عَمَرَتْهَا يَفْعاً حتى بدا في عذارى الشُّهبِ
في فتية كالسيوف هزَّهمُ شرحُ شبابٍ وزاتهمُ أدبُ
ثم أراب الزمانُ فاقسموا أيدي سبا في البلاد فانشعوا
لن يُخلفَ الدهرُ مثلهم أبداً على - هيهات - شأنهم عجبُ
لما تيقنتُ أن رَوْحَتَهُمْ ليس لها ما حيتُ منقلبُ
أبليتُ صبراً لم يُبْلِهْ أَحَدُ واقسمتني مآربُ شُعبُ
كذاك أنى إذا رُزيتُ أخاً فليس بيني وبينه نسبُ
فَطُرُّ بِلْ مَرَبْعِي ، ولى بقرى كرخ مصيفٌ ، وأمى العنبُ
تَرْضَعُنِي دَرَّهَا ، وتلحفني بظللها والهجيرُ يلهبُ
إذا ثَنَّتْهُ الغصونُ جلالى فينانُ ما في أديمه جُوبُ
تبيتُ في مائِمِ حَمائمِ كما تَرْتِي الفواقِدُ السُّلبُ
يهبُ شوقى وشوقهنَّ معاً كأنما يستخفنا طربُ
فاذا أضفنا إلى هذه أبياتاً له أخرى يقول فيها :

أَيَا مَنْ كُنْتُ بِالْبَهْ رة أصفى لهمُ الودَّ

ومن كانوا موالىً ومن كنتُ لهم عبداً
ومن قد كنتُ أرعاه وإن ملَّ وإن صدّا
شربنا ماءً بغدادٍ فأنسانا كم جِداً

لم يبق موضعٌ للشك في أن شاعرنا نزع من البصرة لأنه خاب في حبه
وفُجِعَ في قلبه . ولقد بلغ به الكمد والكرب أن بدت في عذاره ومفرقه
رواعى الشيب ، ولما يزل في شرح الشباب وريعانه .

وأخذ الشاعر في طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من
البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن يقصد منها الكوفة الجميلة المعروفة
بالعلم والعلماء ، وإنما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك
التي عرف سوادها وجاس أرباضها وشرب في دساكرها وحاناتها ، واطّلع طلع
ملاهيها ، وخبر مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . إنه اليوم
لأشد حاجة الى الشكر ، وأفسح عذراً في التلهي والقصف ، تفرجاً عن
همه وتخفيفاً من يأسه القاتل وهرباً من نفسه . ولقد لقي صاحبنا في الكوفة
من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صحبتهم وأنس بمنادمتهم ، حتى ختم
قصيدته الرائية في ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفان » مذهبها وعدمت عن ظرفائها صبرى

وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من أنزه البقاع وأطيها ، كثيرة
المياه والرياض ، وكانت تقوم في معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان في
انقطاعهم بهذه المواضع يعملون إلى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير

موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، وإلى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بشمه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بمعتقاتها من الخمر ، وهى من قديم « المشهورة فى الآفاق ، المعروفة مغارسها بطيب الأعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب من المسلمين للخمور النصرانية لارتياض النصرارى باعتصارها وحذقهم له ، فضلاً على ما اختصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الإقبال أنه تأدى بالزهبان إلى اتخاذ الحانات إلى جانب الأديار لمبيع خمورها لمريديها . فكان يقصد إليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والحمان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة ، فى الآنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وأنغام الترانيل والقراءات فى المزامير والأنجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية . ولقد عاج أبو نواس فى طريقه إلى بغداد على حانات هذه الأديار التى كانت كثيرة حول الكوفة وفى ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الإدمان عليها والعب فيها :

وقهوة عتقت فى دير شماش تفتّر فى كأسها عن ضوء مقباس
مزاجها دمع حاسيها ، فأى فتى لم يبك إذ ذاقها من حرقة الكاس
سلم ، ولكنها حرب لذائقها يا حبذا بأسها ما كان من باس
وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولا يدع الساقى يفتّرعنه ،

ولا يبرح يناشده أن يحث المدامة إليه ويديرها مرات بعد مرات عليه . وإنه ليتبادر للخطر أنه كان يشرب لا للشرب ولذته ، وإنما تعجلاً لسكرته والتماساً لذهول العقل وغيبة الفكر :

رُدَّا عَلَى الكَأْسِ إِنكَمَا لَا تَدْرِيَانِ الكَأْسَ مَا تُجْدِي
لو نلتما ما نلتُ ما مُرِجتُ إِلَّا بدمعكما من الوجدِ
وظاهرٌ من هذا أنه قد عكف على الكأس حين عكف ليُفرِّق الهمَّ
في كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسه وينسلخ عن ذكرى أمسه . فهل تراه
أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما في نفسه ؟ هيهات ، بل كانت هذه المجالس
التي جلسها للشرب في الأديار على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع
التطريب والألحان أدعى للذكر وأورى عنده لنار الوجد ، حتى تغلب الحالُ
عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجاً عن القصد متجاوزاً للحد ، يحسبه
منادموه عريضة منه خلفاء سره وجهلهم لأمره :

إذا شاقك ناقوسٌ وشجوا الناي والعودُ
وغوديتَ بريقَ الخمر مجتة العناقيد
تطربتَ إلى الإلف فقالوا أنت عريبد
وهل عريبد مكروبٌ قريح القلب معمود !

ولقد كان من الدواعي المحببة للشرب والمغرية به موقعُ الأديار بين الجنان
الموقنة والغدران المترقرة ، أو على الزوايا العالية المطلة على الأودية الناضرة
والمياه المتحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك في أن رقة الهواء ، ورواء المنظر

وحسن المستشرف، وهذه الألوان البهيجة المشبوبة، والخطور المتزجة المشبوبة، من شأنها أن تشد الحواس وتنبيه مراكز العصب، فيتحرك الحب في قرارة كل قلب. وإذا لم يكن لشاعرنا المهجور أمل في الحب، فقد انصرف إلى الشرب في هزة طربه واحتياج مشاعره. وهذه أبيات له في دير مريونان - ويقال له أيضاً عمر يونان - في الأنبار على ضفة القرات، وهو دير كبير عليه سورٌ محكم، ورياضة غناء فيحاء :

وغرّد الراهب في العُمُر ^(١)	آذَنكَ الناقوسُ بِالْفَجَرِ
وجاءك الغيثُ على قَدَرٍ	وحنَّ مخمورٌ إلى الخمرِ
تضحك عن خُضْرٍ وعن صُفْرٍ	واطردت عيناك في روضةٍ
مزاجها من مُغْرِقِ القطرِ	فعاطِ نَدْمَانِكَ من خمرةٍ
ومشكِلٍ من حالِ الزهرِ	على خُزَامَاها وحوذَانِها
شوادِنٍ من بقرِ زُهرٍ	في مسرحٍ ترتعِ أَكْنَافُه
وحبذا نَيْسَانُ من شهرِ	ياحبذا الصبحة في العُمُرِ
بحرمة الحِـمَانَةِ والفُهرِ ^(٢)	ياعاقد الزَّناارِ في الخُصْرِ
إلا التي أضمرتُ في صدري	لا تَسْقِنِي - إن كنتِ بي عالماً -
واكني بما شئتَ عن الخمرِ	هاتِ التي تعرفِ وجدى بها

ومن الديرة التي عاج بها أبو نواس بظاهر الكوفة على بعد يومين منها دير حنة، وهو ديرٌ قديمٌ في بقعة كثيرة الرياض والبساتين، تحاذيه منارةٌ

(١) الكنيسة (٢) العيد أو المعبود

عالية كالمرقب تسمى القأم ، وبه بيوتٌ صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلالاً لهم وتسمى هذه البيوت بالأكيراخ . ولعله من أدلّ الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكلُّهم أن يسكر من معتقات دنائه ، وينظر الى ظبائه من الإنس وغزلانه ، على حد قوله :

يادير حنة من ذات الأكيراخ مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِ لَسْتُ بِالصَّاحِي
رَأَيْتُ فِيكَ ظَبَاءَ لَا قُرُونُ لَهَا يَلْعَبْنَ مِنَّا بِالْبَابِ وَأَرْوَاحُ
فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا المشهد المائل لعيانه للزهد في متاع الحياة ، والإعراض عن الدنيا والانتقطاع لله . فقد جعل - وبه شعورٌ مخامر من العجب الذي لا يتقضى والارتياح الذي لا يدركه - يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد أنحلهم القنوت والتقشف ، وشفهم التهجد والتعبّد ، وأذابهم طول التفكير والخوف من نار السعير ، فلا يرى الناظر إليهم إلا أشباحاً ، محفوةً مفارقهم ، محوّة رءوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوحٌ خشنَةٌ بالية ، وقد عزفوا في مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرّموا على أنفسهم من أسباب الترف أهون وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشربون من العدران بغير آنية اغترافاً بأيديهم . فاسمع إليه يقول فيهم :

دع التشاغل بالذات - يا صاح - من العكوف على الريحان والراح
واعدلْ إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة ، نُحِفَ الجسم ، أطلّح

لم يبق منهم لرائهم إذا حصلوا - حذار ما خوفوه - غير أشباح
تلقى بهم كل محفور مفارقة من الدهان ، عليه سحق أمساح
لا يدفنون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح
ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه ، ومن تحقق معناها في حسه ، أن عاد
إليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دع البساتين من آسٍ وتفتح واعدلْ - هُدَيْتَ - إلى ذات الأكيراح
إعدلْ إلى نفرٍ دقتْ شخصُهم من العبادة إلا نضو أشباح
يكررون نواقيساً مرجعة على الزبور بامساء وإصباح
تُبعدُ بسمعك عن صوتٍ تكرَّهه فلست تسمع فيه صوتَ فلاح
إلا الدراسة للإنجيل من كتبٍ ذكرَ المسيح بإبلاج وإفصاح
على أن الشاعر لا يلبث حتى يعاوده ما تعودُه أمثاله من السكر والجون ،
فختره بعد أن عدل - في هاتين المقطوعتين - عن الريحان والراح والآس
والتفاح ، إلى ذكر العبادة والصلاح ، ووصف العابدين أنضاء النسك كالأشباح ،
ينتقل إلى ما كان عليه من التغنى بالخمرة المعتقة التي يُتحفون بها الضيوف في
القُباب الكبار ، وإلى التغزل بالراهب القتي الذي داربها عليهم وقد صار
بعد السكر ينعت نحوكه بالهيف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية
ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نعمة شعره إلى وتيرتها ، وتعود حياته
الماجنة سيرتها ، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيبه وعتيقُ الراح تحفُّهم بكل نوع من الطاسات رَحراح

يسميكها مُدْمَجُ الخَصْرَيْنِ ذَوْهَيْفٍ أَخُو مَدَارِعِ صُوفٍ فَوْقَ أُمْسَاحٍ
ولقد كانت الأديار كثيرةً في العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان
بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تُحَصَّنُ الأسوارُ
الشاهقة والأبواب المفرطة في الكبر من حديد مُصَمَّتٍ أحياناً ، وكان منها
ما تعلوه القبابُ المنيفة تُرَى من بعيد . وكان لبعضها زينةٌ في داخلها نهاية
في البهاء والرواء . فَمِنْهَا ما كانت مزوّقة الجدران بأشكال النقوش والنصوص
المذهبة ، مفروشة أرضها بصنوف الرخام المجزّع والمرمر المسنون المرد لا تستقر
عليه القدم ، وفي سقوفها الذهب والفسافس واللازورد ، وقد علّقت في هياكلها
القناديل من فضة ، واتخذت لها الصليبان من ذهب . وفي أركانها وآزاج
طيقانها الدُّخَى محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفي سقوفها وحيطانها صور
مرسومة ملونة بأزهى الأصبغة والألوان . وفي الصدر صورةُ المسيح وعلى
رأسه إكليلُ الشوك ، أو صورة مريم في غاية من إتقان الصنعة « كَمَا مِلَّتْ
من ناحية كانت عينك إليها » .

ولقد كانت الأكواب التي يُسقى بها ضيوفُ الدِّيرة من ذهب أحياناً ،
وكان منها الأملس الغُفْلُ ، ومنها المنزَّلُ المحفور بأنواع الرسوم الدينية . ولقد
شرب أبو نواس خمرَ ذهبية اللون في أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :

أقول لما تحاكيا شَبَهًا أيهما - للتشابه - الذهب
هل سواء ، وفرق بينهما أنهما جامدٌ ومنسكب

مُسَّ ، وأمثالها محفّرة صوّر فيها القسوسُ والصُّلبُ

يتلون إنجيلهم ، وفوقهم سماءُ خمرٍ ، نجومها الحَبُّ

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء الحُجَّان أمثال أبي نواس لحانات هذه الأديار أن كثر في أشعارهم وُرُودُ أسمائها والتغنى بجمورها ووصف بساكناتها . وقد ألّوا في تلك الأشعار ببعض شعائر النصراني ومصطلحاتهم وإن كانت لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذي يزعمونه عن ليلة الماشوش وما يجري فيها من إباحات واستهتار بالحرام مما لا يُقرّه دينٌ ولا يصحّ في عقل . وإلى هذا الوهم يشير أبو نواس في أبيات له في تفضيل بهروز الفارسي على العلمان النصراني :

نقّ في الولادة عن مَشوشٍ يرخصه النصراني للقسوسِ

وحسبنا لبيان إلام هوّلاء الشعراء المساهمين بالشعائر النصرانية في أعياد القوم ومتعبداتهم هذه الأوصافُ لأبي نواس :

كأنما الكأسُ إذا صُفِّقَتْ قنديلُ قسٍّ وسَطَ محرابه

وله في فوران الخمر في إبان تعتيقها في الدنان :

أقامت حقبةً في قَعْرَدَنْ تقور وما يُحسّ لها هيب

كان قراتها في الدنّ تحكي قراءة القسّ قابله الصليبُ

وقوله متغزلا :

عيناى تشهد أنى عاشقٌ لكم يا دُمَيَّةَ صوِّروها في الحارِيبِ

وأخيراً هذه الأبيات في الجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن

مارى سرجس :

بعمودية الدين العتيق	بمُطرُ بليطها ، بالجائليق ^(١)
بشمعون ، بيوحنا ، بمتى ،	بمارى سرجس القس الشفيق
بمارت مريم ، وبيوم فصح ،	وبالقربان ، بالخر العتيق
بميلاد المسيح ، بيوم دُبح ،	وباعوث ^(٢) لتأدية الحقوق
وأيام السعائين ^(٣) المبدي	وشعلة النصارى فى الطريق
لهيكل أسقف ، وبما يليه ،	ونشر البند والعلم الخفوق
وبالصلبان ترفعها رماح	تلاّلا ، حين تومض بالبروق
وبالناقوس فى البيع اللواتى	تقام بها الصلاة لدى الشروق
بداود وما يتلون منه	بترجيع يُردّد فى الحلوق
بقلايات دومة ، بالمقاسى	ومذبح ديرها الحسن الأنيق
ورهبان الصوامع فى ذراها	مُقامهم على جهد وضيق
بكُنس الروم والشامات طرّا	بقسطنطينة البلد السجيق
لقد أصبحت زينة كل عيد	ودين ، مع جفائك والعقوق
ومن مقطوعة أخرى :	

(١) الجائليق مقدم الأماقفة (٢) الباعوث : عيد للنصارى كالأستسقاء للمسلمين

(٣) السعائين أو الشعائين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

روح القدس والميلا د والهيكل والذبح
وصورة مريم العليا وبالسلاق^(١) في الصبح
ومثالها :

بسجود القسيس يوم السجود والصليب المعظم المعبود
وبناقوس بيعة اللحم حقاً وبأقفاها وبالإقليد
وبما في بيوتها من رخام وبما تحت سقفتها من عمود
وغير ذلك كثير من الأقسام التي تشتمل في مضامينها على جملة أوصاف
الشعائر النصراني وسننهم ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم ومتعبداتهم .
وفيا ورد منها الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسلمين بهم اتصال
معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلق والمتماجنين لأيام أعيادهم للنظر إلى محاسن
فتيانهم وفتياتهم في الحللى والحلل في غدوهم إلى البيع والكنائس ،
والتعرض لهم أحيانا بالغزل والعبث .

على أنه يحسن أن ننبه هنا إلى أن ما يرويه أبو نواس وأمثاله من
خلاعاتهم ورقعاتهم في الأديار في عصابة من الفتاك الخلقاء ورفقة من الشطار
والفتيان المفاسيد ، إنما ينصرف إلى الجانات والبساتين التي حولها ، كما هو
واضح جلياً من شعره :

بدير نهر اذ ان لي مجلس وملعب وسط بساتينه

(١) السلاق : عيد للنصارى وفيه تسلق المسيح مصعداً الى السماء

رحتُ إليه ، ومعى فتيةٌ
بكل طَلَّابِ الهوى فاتكُ
حتى توافينا إلى مجلسٍ
والترجس الغضُّ لى ورده
وحىء بالذنَّ على مرفعٍ
وافتصد الأكلُ من دننا
وطاف بالكأس لنا شادنُ
يكاد من إشراق خديه أن
فلم نزل نُسقى ونلهو به
حتى غدا السَّكرانُ من سكره

نزوره يوم سـعائنه
قد آثر الدنيا على دينه
تضحك ألوانُ رياحينه
والوردُ قد حُفَّ بنسرينه
وخاتم العليج على طينه
فانصاع فى حمرة تكوينه
يُدميه مسُّ الكف من لينه
تُختطف الأبصار من دونه
ونأخذ القصفَ بآيينه
كلميت فى بعض أحايينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا فى طيزناباذ بين الكوفة والقاسية .
ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ، مخوفة بالكروم والشجر ، وفيها
المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا
أيضا معدول عن الدير إلى بستان صاحب الدير (وهو العمَّار أى الديرانى ، من
العُمَر وهو الدير) :

يا حبذا مجلسٌ قد كان يجمعنا
وحبذا أم عمَّارٍ ورؤيتها
تعلُّنا بمدمامٍ قد تناولها
لم نخطُ من خدرها شبراً إلى أحدٍ

بطيزناباذ فى بستان عمَّارٍ
خماراً أصبحت أمّا لعمادٍ
ريبُ الزمان وعصرٌ بعد أعصارٍ
ولم نزل بين جنات وأنهارٍ

ولعل أبا نواس لم يدع في طريقه إلى بغداد ديراً أو عُمرًا ، ولا قلابةً
أو كِرْحًا ، إلا ألمَّ به ، فهو لا يفتأ يلهج بذكر ديارات الحيرة وطيزنا باز والأنبار
وغيرها ، مردداً اشتياقه لها وما يعتاده من الحنين إليها ، تجديداً لمجالس شربه
في حاناتها ، وملاهيته في بساطتها :

أنا والله مشتاقٌ إلى الحيرة والخمر
وأصواتِ النواقيس على الزيرات بالفجر
ومشتاقٌ إلى الحانا ت يوم الذبح والنحر
ومُفَنٍّ في طِلابِ المرُ د والخمر معاً وفَرى
أما والله لو تسمع ما قلتُ من الشعر
لايستَ منِ افلاحى يقيناً آخرَ العمر

ولقد أفادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، إذ جلتها أجمل جلوة
في عينه ، وقرّبتها إلى قلبه ، وخلطتها بحسه ، فظهر أثر ذلك جلياً في شعره .
على أن هذا الحب للطبيعة لم يرتفع عنده إلى وقفة التعبد في هيكلها والخبوت
لروحها والشعور الديني بحضرتها والاتحاد الصوفي بروحها ، وإنما كان قصاراه
أن يجعله دائم الصبوة إلى طيب المجالس في رياضها ، سريع الشوة بعطورها
وأطيابها ، متطرباً إلى خرير جداولها وأطياريها ، منجذب العين إلى أنواع
ريحانها ومشبوب ألوانها ، حتى صار لا يطلب شيئاً طلبه للشرب في أحضانها
كأنما يرتفع الحرة من لبانها . ومعنى ذلك أنه وإن يكن عاشقاً من عشاق

الطبيعة لم يكن عشقه لها إلا من نوع العشق الحسى لا يعنى بغير الملموس المحسوس .
 فالطبيعة عنده - كما قدمنا - ليست معبداً ، ولكنها مرتعٌ موق للهو واللعب
 لا مرتعٌ مثله ، ومجلسٌ مأنوس للسكر والطرب لا يعدله مجلس . وهنا يتشاغل
 هذا الحب الخيب عن هوى «جنان» بهوى المرد والقيان . وهنا نلقى هذا
 الشاعر العالم يغالب بالشراب أحزانه ويطفى به وجدّه وأشجانه ، لو صح أن
 اللذة تُغنى غناء الحب ، وأن الخمر تطلق النفس من عقالهم ، وتفرغ برد
 الغزاء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم الحزون :

لا تَخْشَعَنَّ لطارقِ الحِداثِ وادفعْ همومَكَ بالشرابِ القانى
 أو ماترى أيدى السحائبِ رَقَشَتْ حُلَّ الثرى بطرائقِ الريحانِ
 من سوسنٍ غَضَّ القطافِ ، وخُزِّمَ وبنفسجٍ ، وشقائقِ النعمانِ
 وجَنِيَّ وردٍ يَسْتَبِيكَ بحسنه مثل الشموسِ طلعتْ من أغصانِ
 نُحْراً وبيضا يُجَنِّينَ ، وأصفرأ وملونا ببدائعِ الألوانِ
 كعقودِ ياقوتٍ نُظْمِنَ ولؤلؤ ، أو ساطنِ فرائدِ العقيانِ
 ومن الزبرجدِ حولنِ ممثلاً سمطاً ، يلوح بجانبِ البستانِ
 فإذا الهمومِ تعاورتك فسَلِّها بالراحِ والريحانِ والندمانِ

دار السلام في عصرها الذهبي

تعجّل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطاولةٍ وحتمٍ مطافه ، وأقبل لأول عهد الخليفة هارون الرشيد قادماً على دار السلام ، بغداد التي اختطّها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الإسلام .

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتسلّت نفسه جلالاته ، وشعبت عينه فتنه ، وهو يستشرف إليها ، ولقد بدت أسوارها المكيّنة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيان ، كالقلعة الحصينة . وكان يدور حولها خندق ، ومن ورائه مسنّة ^(١) بالأجر والصاروج ^(٢) متقنة محكمة عالية . وكان دخول « أبي نواس » من المدخل المقابل للطريق التي أتى منها - أي من باب الكوفة . فإذا هو منه في دهليز عظيم أزج ^(٣) معقود بالأجر والجص ، في جوف السور الخارجي الكثيف ، وكان عليه باب كبير جليل المقدار لا يغلقه ولا يفتحه إلا جماعة رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز إلى رحبة مفروشة بالصخر طولها ستون ذراعاً ، مسوّرة غير مستقوفة ، وهي مادة في انحراف وازورار

(١) ما يبني في وجه السيل : السد (٢) الأجر ما يبني به من الطين المطبوخ (الطوب الأحمر) . الصاروج الكلس (الجير) وأخلاطه (٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

إلى سور المدينة ، تشقّ براح الفصيل الدائر بين الأسوار الخارجية والأسوار الداخلية ، وفي حائطي هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان في جنبتيها يشرعان^(١) إلى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى في صدرها الى الباب الثاني ، وهو باب المدينة في سورها الأعظم الذي عليه تقوم الأبراج العظام والشرفات المدوّرة . ومضى القادم المدهوش يحترق الدهليز الثاني في جوف السور الداخلي والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليلان عظيمان ، يدخل منهما الفارس بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير أن يُميل العلم ولا يثنى الرمح . وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة تنتهى الى طاقات^(٢) معقودة ، فيها كوا^(٣) رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل بابٌ ساج كبير من فَرْدَيْن ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين عُرفٌ للمرابطة .

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا - كسائر أبوابها الأربعة - تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجلس يُشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويُصعد إليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض ، وفي داخلها الديادة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثالٌ تديره الريح لا يشبه نظائره على القباب الأخرى .

وانتهى أبو نواس من هذه الأسوار والدهاليز والطاقات والأبواب التى تحرسها الجند ، إلى داخل المدينة العظيمة . فإذا داخلها لا يكذب ظاهرها .

(١) ينفذان إليه (٢) جمع كوة (٣) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء

فهى من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أبهة العارة ، وفوق ما يقدره حسابان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هو على أشد الزحام بالناس أخلاطاً من سائر الأجناس . ولعلّ أعظم ما شاقه منها وارتاح إليه فيها ذلك الطابع الأعجمى الذى يطبعها ويغلب عليها فى كل شيء .

فبانيها وقصورها ومصانعها على مثال من الهندسة فيه الفارسى والبيزنطى وقد حوّطوها بالأسوار ، وجعلوا فى سطوحها القباب مرفوعة على العمُد الدّقاق كأنها معلقة فى الهواء . وزيّنوا جدرانها وستوفوها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيوان من طواويس وغزلان . وكتبوا الآيات بالذهب الجسم ، وحفروا المناظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملون على دوائر الأبواب والقمرىّات . وعمدوا فى صنع أطرها الى الآبنوس وغيره من الخشب الثمين . وتأنقوا فى اتخاذ الجنات فى قصورهم وتنسيق المنزهات يجلبون إليها بدائع الأغراس وغرائب الأطيّار من أطراف الأرض ، ويسوقون إليها الجداول وبينون السقايات . ويحتفرون البرك تجرى فيها الزواريق للهو والغناء فى الليالى القمراء . وكان من هذه القصور ما يرجع عهده الى المنصور مثل « قصر الذهب »

الذى بناه وسط بغداد المدوّرة ، وفى صدره الايوان تنعقد فوق مجلسه الأعلى القبة الخضراء منيفة ترى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثال فارس عليه فارس وفى يده رمح . وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد ، ومأثرة

راسية الأساس لموطد مُلك بنى العباس . ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان . وقد جاءت تسميته تشبيهاً له بجنة الخلد ، لما يحويه من عجب فائق وجميل شائق من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه . وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيدة المشهور بدار القرار . وكان القصران متقاربان على الضفة الغربية من النهر . وكان بحذاءهما من الجانب الآخر قصور اليرامكة لا تقلّ عنهما عظمةً وأبهة . ثم غير هذه وتلك قصورٌ عدة على جانبي دجلة للأمرء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والأسواق والجوامع والحمامات وهي لا تحصى كثرة .

وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » في بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » في روضة تخرقها الأنهار بالسفن
خَلَا لها الورد لدى نرجس معتنق للآس في غصن
نيط بتفاح إلى مشمش بين نخيل الطن والبرن
ياحبذا النوار نواره مختلف البهجة في الحسن
من أصفر يرنو إلى أحمر وأبيض في اللون كالقطن
كما أشار إلى ما كان في قصر المهدي من حسان الطواويس في قصيدة في باب الطرديات ينعت ديكاً من ديوك الهند :

أنعت ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس «قصر المهدي»
ومن إشارته لقصور الأمراء قوله في إحدى خمرياته وقد دعاه الأمير

عيسى بن أبي جعفر المنصور ليقم عنده أسبوعاً في القفص في أرباض بغداد :
ياطيننا بقصور القفص مشرقةً فيها الدساكر والأنهار تطرد
ولقد كان شيوخ اللباس الفارسي في بغداد يكاد يكون عاماً بعد سنوات
من صدور أمر الخليفة المنصور لأصحابه بتغيير الزي الرسمي في سنة ١٥٣ .
فكانت طوال القلائس بدل العائم رجال الدولة وأصحاب الديوان ، والطبال
السود للعلماء والمشايخ ، والأقبية لسائر الرجال ، والقرايط والمناطق للغلمان
والجوارى .

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهراً في كل ناحية من نواحي
الحياة العملية والعلمية ، العامة والخاصة ، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة
على أن أبانواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها ، فلم
يعرض بشيء من جيد القول لوصف القصور أو غيرها من آيات الحضارة
وعظمة الملك في بغداد في عصرها الذهبي أيام الرشيد والبرامكة . وإنما الذي
شغله الشغل كله واستولى على نفسه وملاك عليه مشاعره ، هو هذه الروح
الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثة في بغداد ، تجري في حلبتها منطلقة في
أعنيها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حب للنبيذ ، ونزوع للهو
والسرور ، وميل للطرب والغناء ، واستجابة لدواعي الغزل . وهي روح
متفقة مع ديانتهم الزرادشتية القديمة التي جعلتهم يعبدون الطبيعة في مظاهرها
الحسية دون استغراق في الغيبات كغيرها من الديانات
ولقد كان لهذه الحضارة التي انغمس فيها الشاعر أعرق الأثر في نفسه ،

وهي كذلك معكوسةٌ أُصدق الانعكاس في شعره . ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على الأطلال التي تعفّت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحيّ الذين تحملوا بنحيمهم ظاعنين ، وذكر غراب البين الذي آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلقوا من رسوم ، وتشتم ما حوّلها من العرّار والشيخ والقيصوم . وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المحدثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله في الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادي وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة العمران مترفة النعيم . ولقد أبى شاعرنا العبقرى المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة للشعوبية ، وبما كان يتذوقه ويتملّاه في هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، إلا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره ترجمان عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه . وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقة في خشية المتهيبين وتستتر المهرّين ، بل رفع علم الثورة نهاراً ودعا دعوة المصلحين جهاراً ، فحق له أن ينزل من التاريخ الأدبي منزلة المجاهدين ، وأن يُعرف له في الأدب العربي فضل المجددين .

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية في حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعاري المحدثين ، وما كان يأخذه به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

إِخْلُ عَلَى الدار بتسليم فما لديها رجع تكليم

والْعَنَ غَرَابَ الْبَيْنِ بَغْضًا لَهُ
وَعُجَّ إِلَى التَّرْجَسِ عَنْ عَرَفَجٍ^(١)
وَاعْدُ إِلَى الْحَمْرِ بِإِبَانِهَا
ومثل ذلك قوله :

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ^(٢)
وخلِّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ^(٣) أَرْضًا
وَلَا تَأْخُذْ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوًا
ذَرِ الْأَلْبَانَ يَشْرِبُهَا أَنْاسٌ
بَارِضٍ نَبْهًا عَشْرَةً وَطَلَحَ
إِذَا رَابَ الْحَلِيبُ فَبُلَّ عَلَيْهِ
فَأَطِيبُ مِنْهُ صَافِيَةٌ شَمُولُ^(٤)
إلى أن يقول :

فَإِنَّ الْبَدُوَّ مِنْ إِيْوَانِ كَسْرَى وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الدَّرُوبُ
وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من إشارات عابثة فكهية إلى
بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقة، كالإشارة إلى مطلع امرئ
القيس في معلقته « قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله - وهي إشارة

(١) العرفج والشيخ والقيصوم مما ينبت في سهول البادية ، وهي جميعاً طيبة الرائحة
(٢) الجنوب : الرع التي تهب من الجنوب (٣) الوجناء : الناقة الشديدة
(٤) الحوب : الإثم (٥) الشمول من أسماء الحمر .

أصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء بنكات الظراف المتحضرين من أبناء
البلد عندنا :

قل لمن يبكي على رسم درّس واقفاً ، ما ضرّ لو كان جلس ؟
كما أنه في بعضها شديد الوطأة ، عارم الجراة ، مستجمع الحلة ، كقوله
في هذه الأبيات التي نجد روح الشعوبية ظاهرة فيها وكرهه العرب غالباً عليها :
عاج الشقي على رسم يسائله وعجبت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درك ، قل لي : « من بنو أسد ؟
ومن تميم ، ومن قيس ، ولفهما ؟ » ليس الأعراب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصفو إلى وتد
كم بين ناعت خمر في دسا كرها (١) وبين بالك على نؤي (٢) ومتنضد !

ومن طريف ما يأخذه أبو نواس عليهم ويذكره لهم في جملة معايبهم ،
ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنهم للغزل
بالمذكر ، وذلك في قصيدة مطولة يذم فيها الأعراب ويعرض بعشقتهم ويذري
بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفي ختامها يقول :

أما والله لا أشرأ (٣) حلفت به ولا بطراً
لو أن مرقشاً حي تعلق قلبه ذكراً
كأن ثيابه أطلع ن من أزراره قرأ

(١) الدساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي (٢) النؤي : الحفير حول
الحيمة يمنع السيل ، والمتنضد مجتمع الرمل والحصى (٣) الأشر : فرط المراح

ومرَّ يريد ديوان الـ خَراج مضمَحًا عطرًا
 بوجهٍ سابريٍّ^(١) لو تصوَّب ماؤه قطرا
 وعينٍ خالط التفتيرُ في أجفانها حورا
 وقد خَطَّت حواضنه له من عنبر طُرا
 يزيدك وجهه حسنا إذا ما ودته نظرا
 لأيقن أن حبَّ المرِّ د يُلقَى سهله وعرا
 ولا سيما وبعضهم إذا حييته انتهرا

ومهما قيل من أن صاحبنا إنما كان في وصف اللذة والحرّ تجديده جميعه ،
 فإن صدقه في الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحي عصره لاشك شفيعه .
 ولقد كان الذي اجتذب أبا نواس إلى بغداد وأخطرها بذهنه ، هو بعينه
 الذي اجتذب سائر أهل الفن والأدب إليها منذ ابتداء عصر المهدي . فقد
 كانت أيام أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور أيام تأسيس الملك وإرساء
 لقواعده ، بالقضاء على الأمويين الأعداء ، والضرب على أيدي الطامعين من
 الأولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه طلبوا الراحة
 وانبسطت نفوسهم للهو . والهوى في ذلك الحين حاضر قريب ، شديد السحر
 والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم . فاذا الخليفة الذي عهدناه
 في شخص السفاح والمنصور متشدداً مقتصداً مؤثراً للجدِّ منصرفاً إلى مجالس
 العلم ، قد بدأ في شخص المهدي يتفرج ويستمتع بشيء من اللهو ، وينفق

(١) الثوب السابري : هو الرقيق الناعم

المال على اللّهيّن والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعاً ، وكانوا في أول أمره يغنونه من وراء ستارة ، فلم يدم احتجابه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج لهم ، ومن قوله في ذلك « إنما اللذة في مشاهدة السرور والدنو من سرّتي ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولدتها ؟ » . وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشرب لا تحرجاً بل لأنه لا يشتهيّه . وأما هواه فكان بالنساء ، وكان أحبّ شيء إليه الخوض مع خاصة ندمائه في الحديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى . وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالي بهن ، وله في الجوارى والقيان أخبارٌ وأشعار .

وسواء أصبح نظم المهدي هذه الأشعار أو لبعضها أم لم تصحّ له كلها ، فانه كان يهتزّ للشعر ويمجزل العطايا للشعراء . فكثرت منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب ، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها . واجتمع ببابه نفرٌ غير قليل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبدالله بن الخياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر . ويكفي في الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لأهله في ذلك العهد من آفاق ، ومادرت عليهم من الأرزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الأدب قبله . فقد روى لنا الراؤون أن قد اجتمع مطيع بن إياس وحماد مجرّد ويحيى بن زيار يوماً في أيام المنصور العباسي ، فتذاكروا أيام بني أمية وسعتهما ونصرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ،

وعرضوا على جبهة المقاتلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثروا ، وقال في ذلك مطيع بن إلياس :

حبذا عيشنا الذي زال عنا . حبذا ذاك ، ثم لا حبذا ذا
زاد هذا الزمانُ عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلّنا بغدادا
بلدة تمطر الترابَ على النسا س كما تُمطر السماء الرذاذا
خربت عاجلاً ، وأخرب ذو العرش بأعمال أهلها كلواذا
ولقد انقطع أبو دلامة الشاعر الأسود الكوفي للخليفتين أبي العباس
السفاح والمنصور ، وكانا يقدّمانه ويستطيبان مجالسته ونوادره ، فلم يبلغا في
عطائهما ما فيه غناءً ومقنع ، حتى قال أبو دلامة حين أحدث المنصور لبسَ
القلاص الطوال كلمته الشاكية المتهكمة :

وكنا نرجى من إمامٍ زيادةً فجاد بطولٍ زاده في القلاص !
ولما أن أفند الخليفة عزمه في قائد الثورة العباسية الأكبر أبي مسلم
الخراساني فقتله ، أنشد الشاعرُ الخليفةَ في محفل من الناس قصيدةً عصماء ،
فقال الخليفة مظهراً في هذه المناسبة غاية التطوّل والانعام ، متعمداً إشعار القوم بما
للخلافة من عظمةٍ وسعةٍ ومقدرةٍ : « احتكم » . فقال الشاعر : « عشرة
آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما انصرف الناس وخلا به قال : « إيه ، أما
والله لو تعديتها لقتلتك » .

ولقد استقلّ المهدي نفسه وهو وليّ للعهد عطاء المنصور لإبراهيم بن هرّمة
حين أنشده قصيدته اللامية التي مدحه بها فكلّمه في ذلك : « يا أمير المؤمنين !

قد تكلف في سفره إليك نحوها . ومهما يكن من احتجاج المنصور لذلك ،
فالذي لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفي طباعه .

حتى إذا كان عهد المهدي خرجت حياة الفن من الضيق إلى السعة .
إذ كان الخليفة مبسوط اليد مبذول العطاء ، لا يفتأ يتسخر على أصحابه ومنادميه
ووفوده من أهل الأدب والشعر ، فيأمر لهم بالخلع الفاخرة والمراكب الفارهة ،
وبالجوائز المضاعفة تبلغ عشرات الألوف من الدراهم تحمل إلى منازلهم معجلة ،
مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه . وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة الشاعر :

بسبعين ألفاً راشني من حبائه وما نالها في الناس من شاعر قبلي

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعة الرزق أن كان سلم الخاسر
يأتي باب الخليفة على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام
مفضضين ، ولباسه الخزّ والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ،
ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه .

ثم إن المهدي لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير
المتكسبين بالشعر ، بل كان يسنى الجوائز ويجزل النفحات لأهل الفن ،
حباً في الفن . ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدي يوماً
فقال له : « أنشدني أحسن أبيات قيلت في السكر ولك عشرة آلاف درهم ،
وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف » فأنشده حماد أبياتاً للأخطل . فقال له :
« أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعد به . فإذا ذكرنا أن المهدي لم يكن
صاحب شراب ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بجمال الفن في ذاته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتمَّ علمه واستوفى فنه
وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر إلى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ،
ليحظى فيها بما حظى به الشعراء . وإذا كان قد فاته عطاء المهدي ، فلا يفوته
عطاء ولده الخليفة الأشهر هارون الرشيد . وما حلّ الفتي البصري مدينة
بغداد ورأت عيناها عظم أمهتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر
بها من أسباب النعيم واللذة لمن أسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حزّ في
قلبه الحرمان وتنى أن يكون له شأنٌ غير هذا الشأن . وتلفت حواليه فإذا
بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوف من الفقراء وذوي الحاجة
ظاهري الخاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش في هذه الجنة الناضرة
الزاهرة .

عند ذلك أدركت هذا الفتي المالحن عزة النفس وتزّت في رأسه سورة
الأنفة ، وعصفت في صدره ثورة منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان
ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا
وحظه من اللذة ، ولو تادى به الأمر إلى الخروج على السلطان والتمرد
على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة يقوم سواء ، أو مخيف^(١) سبيل
بكل فتى لا يستطار جناؤه إذا نوّه الرّحفان^(٢) باسم قتيل
لنخمس^(٣) مال الله من كل فاجر أخى بطنة للطيبات أكل

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر (٣) تأخذ خمس المال

ولقد كانت أمور الخليفة كلها في ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة ،
 أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ،
 ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويُسقطون ، ويحكمون
 في كل شأن بما يرتضون . وهم أهلٌ لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأي
 وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على حسن السياسة ، ومصانعة
 الحوادث والناس . وكانت دورهم بالشامية — في الموضع المعروف بسويقة
 خالد — مناط الآمال ومحطّ الرجال لطلاب المعالي والأقدار الرفيعة من ذوى
 الطموح والهمة ، كما كانت سوقُ العلم لديهم قائمةً نافقةً ، وبضاعةُ الأدب
 عندهم رائجةً رابحةً . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الأمر عليهم ، ليملاً
 يديه من نوالهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له إلى الخليفة سبباً . فذهبهم
 ولكنهم لم يحققوا رجاءه كله . وكانت نغمته كلها على جعفر البرمكى ، فأنزع في
 هجائه لقلة عطائه دونهم ، وتعمده سوء الشهادة في شعره ، ومدافعتة إياه ما استطاع
 عن مجلس الرشيد . وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهدي وغيرهم
 من الهاشمين وكان ينادمهم ويلازمهم . وكان ممن نادمهم القاسم بن الرشيد ،
 ولقى القاسمُ منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ففارقه . وكذلك اتصل الشاعر
 بالفضل بن الربيع ، ثم انقطع له ولآله بعد أن استوزره الخليفة على أثر
 نكبة البرامكة .

ولم يكن النواسى ، مع اعتماده في طلب العيش على الكبراء وأرباب
 الدولة ، بالذى يتحاور ويتهم نفسه لهم ويستشعر الضعة والصغار في ناحيتهم .

فقد كان يمنعه من ذلك شعوره القوى بما للفن الذى يعالجه من شأن
 وقيمة ، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور
 فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريباً من دور بنى نوبخت بنهر
 طابق وعنده جماعة ، فجعل يمرّ بأبى نواس القوَّاد والكتاب وبنو هاشم
 فيسألون عليه وهو متكئ ممدود الرَّجْل لا يتحرك لأحدٍ منهم . وإذا جلساؤه
 ينظرون إليه قبضَ رجله ووثب ، وقام إلى شيخ قد أقبل على حمار له .
 وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس . ووقف أبو نواس يحادثه ،
 فلم يزل واقفاً معه يراوح بين رجله يرفع رجلاً ويضع أخرى ، حتى فرغ
 الحديث ومضى الشيخ .

ولقد حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضل بن الربيع .
 وسعى في ركاب الخليفة جماعة من الشعراء ، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس
 ومحمد بن منذر من المذكورين بالنسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية
 الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن
 منذر قد هياً في مدحه قولاً أجاد تنميته وتنوّق فيه ، وكان الرشيد يسأل
 عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مراتٍ على مداخه صلوات سديّة . فلما كان
 يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن
 يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم » . وقد كان
 البشر ظاهراً في وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتنكّر وعبس في وجهه .

وأضاف الفضل: « مُرُّهُ يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم: أنا بنو الأملاك
 من آل برمكٍ »، فأمره الخليفة أن ينشد. فلما أبى، توعده وأكرهه. فأنشد
 الشاعر القصيدة، ثم أتبع ذلك بقوله: « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام
 مدحتهم، وفي طاعتك، لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نعمتك. ولم أكن
 في ذلك مبتدعاً، ولا خلا أحد من نظرائ من مدحهم. وكانوا قومًا قد
 أظلمني فضلهم وأغنانى ردهم، فأنيت بما أولوا ». فلم يتم قوله حتى كان الخليفة
 قد نادى « يا غلام الطمّة على وجهه ». فطموا الشاعر حتى سدر بصره
 وأظلم ما كان بينه وبين أهل المجلس. ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول.
 « والله لأحرمنك، ولا تركتُ أحدًا يعطيك شيئًا في هذا العام ». فسحبوه
 حتى أخرج وهو لا يعي ما حوله. فإذا بشاب قد وقف عليه ثم قال: « أعزّز
 علىّ والله يا كبيرنا بما جرى عليك »، ثم دفع إليه صرّة وهو يقول: « تبلغ
 بما في هذه ». فظنها ابن منذر دراهم، فإذا هي دنانير تبلغ المائة وأكثر.
 فسأل ابن منذر في دهشته وهو لم يبصر بعد من عشوته: « من أنت؟ جعلني
 الله فداءك ». فقال هذا الأريحي: « أنا أخوك أبو نواس، فاستعن بهذه
 الدنانير، واعذرني ». فقبلها الزميل المنكوب وقال: « وصّلك الله يا أخى
 وأحسن جزاءك ».

ونحبّ أن نرجع بهذه المناسبة إلى ما وقع من ابن منذر في موسم للحج
 سابق، إذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر في هزمية لكل

منهما أنشدھا فی وصف الخمر ، فحكم ابن منذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسراً . فلاشك في أن القاري يرى معنا ما تنطوي عليه وقفة الفواسي بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الزملة والترف عن الشماتة . ومهما قيل من عطله من الفضائل الخلقية ، فان هذه وحدها فيه شاهد صدق على وفور حظه من حساسية الإنسان الحنى ، وأريحية الشاعر الذي وُلد شاعراً .

وأخيراً نفرغ للكلام عن مبلغ علاقة أبي نواس بالخليفة هارون الرشيد وفيها موضع خلاف كبير . فالذي يتقرر في الأذهان من مطالعة قصص مثل « ألف ليلة وليلة » ، وكتب مثل « إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس » هو أن الشاعر كان أشبه بمضحك للخليفة ، يتفكه بأحاديثه ونوادر أفاعيله . والمقرر في أسفار التواريخ المعول عليها أن الذي كان مضحكاً للخليفة ومحدثاً فكها هو ابن أبي مريم المدني ، فكان الرشيد لا يصبر عنه . وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن بواه منزلاً في قصره وخلطه بحرمه و بطانته ومواليه وغلمانہ . وكانت له نوادر وأفاعيل غاية في الجرأة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهذا بعينه ما يحكى عن نوادر أبي نواس مع الخليفة هارون . وهي حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة إلى غير صاحبها . وقد قيل في أول اتصال لأبي نواس بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « اطلب لي رجلاً يصلح للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فذل عليه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشعر

بديها، فحسّن موقعه عند الرشيد، وأمر له بمال. وكان ذلك سبب اتصاله به. وكان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس، ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم، ثم أعرض عن ذلك. فقال له الرشيد ذات يوم: «حدثنا يا أبا نواس». فقال: «لا يحضرني شيء». فقال الخليفة: «بحياتي إلا ما قلت شيئاً» قال: «كان الكذب على، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين». فضحك الرشيد وقال: «هذا أحب إليّ من الحديث». ويروى لأبي نواس مع الرشيد نوادر لا حصر لها، وكلام كثير من المجون والخلاعة، وماجريات تدل على حضور بديهته وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه.

وقيل إنه إنما حصل على هذه المسكنة عند الرشيد بأنه كان إذا بكر إليه سأل خواص أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك الوقت، ثم ينشده أشعاراً لطيفة في مطابقة ذلك فيطيبها نفساً. فمن ذلك أنه كان يوماً مع الرشيد في قصره، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منها فوجدتها تغتسل وقت الظهر، فلما رأته تجلّت بشعرها فأعجبه ذلك منها. فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة إلى مجلس سمر الخليفة أنشده:

نَضَتْ عنها القميصَ لَصَبَ ماءٍ	فَوَرَّدَ وجهها فرطَ الحياءِ
وَقَابَلَتْ الهواءَ وقد تعرَّتْ	بمعتدل أرقٍّ من الهواءِ
ومدَّت راحةً كالماءِ منها	إلى ماءٍ مُعَدٍّ في إناءِ
فلما أن قضتْ وطراً وهمتْ	على عجلٍ إلى أخذ الرِّداءِ

رأت شخصَ الرقيب على التّدانى فأسبلتِ الظلامَ على الضياء
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ وظلَّ الماءُ يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها كأحسن ما يكون من النساء
فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفاً ونطعاً يا غلام ! ». فقال
الشاعر : « ولمَ يا أمير المؤمنين ؟ ». فقال : « أَمَعَنَّا كُنْتَ ؟ » قال : « لا ،
وإنما شئٌ خطر لى بالبال فقلته ». فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة .

هذا وأمثاله يزعمه بعض الكتاب ويقىسون عليه ويضيفون إليه .
فيجعلون لأبى نواس عند الخليفة هارون منزلةَ النديم الذى داخله وخاطبه
وانبسط إليه وتكشّف معه ، حتى إنه أخذ المقام الأول بين الندمان وبنى
لنفسه فى نهر طابقِ الدور التى لم يَبْنِ مثلاً عظماء الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علماً بأحوال
أبى نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد
موضوعات ، وأن أبى نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على
محمد الأمين ، وأنه ما ملك عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم !
وأغلبُ الظن أن الفريقين ذهباً مذهب الغلوّ فى الوهم ، وأن القولين
لا يسلمان من المبالغة والسرف فى الجزم . ولكى نتبين وجهَ الرأى ، يحسن
أن تتمثل حياة البلاط فى ذلك العهد .

كان هارون فى تفويضه أمور الدولة وتديبرها إلى البرامكة يجد من وقته

الفراغ للتملّي بنعيم الأسرة ، بين زوجاته وأخصّهن بالسكّانة عنده زبيدة ،
وأمهات أولاده اللاتي يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين نعرف
منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنهم عندنا ذكراً الأمين والمأمون
وسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراغ للجلوس الى أهل الفقه
والأدب ، وللخولة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب . وقد اشتهر بشرب النبيذ
الذي كان يرخص أهل العراق في شربه . وفوق هذا جميعه كان يحتفل بإحياء
أبيه ما عُرف في بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنين
والمغنيات على أنواع المعازف والملاهي .

ولا عجب فأولاد المهدي كلهم من محبي الموسيقى لما كان يجتمع في قصر
أيهم من القيان ، ولطول ما تردّد في مجلسه من الغناء والألحان . وكان
هارون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان
مما يزيد في سروره بالشعر وطربه عليه أن يعمل فيه ما يوافقه من اللحن
ويُغنى له . ولكنه على كل حال كان من أحكم الناس بصراً بالشعر وأخصّهم
تذوقاً لجيده وأشدّهم تأثراً به . فلا يمكن وهارون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى
عليه شأن شاعر كأبي نواس وألا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه .
وإذا كان العقول لا يكفي ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه إسحق
الموصلي من تقديم الرشيد لشاعر ناعم ما كان من مماراة جعفر البرمكي في أمره
وتعصّب إسحق نفسه عليه وقتئذ لشيء جرى بينهما حتى صار لا يعدّ أبانواس

البتة ولا يرى فيه خيراً . ونزید علیه هنا ما رواه كاتب الرشید اسماعیل بن صبیح ، قال :

قال لی الرشید : یا اسماعیل ! أبغی وصیفةً مایحةً مقدودة شکیلةً ، حلوةً متکلمةً ، ظریفةً عالمةً ، تسقینی ، فإن الشرب یطیب من ید مثلها . فقلت : « یاسیدی ! علی الجهد » . فقال : « اجعلُ أمامک قول هذا العیار — یرید أبا نواس — وامثلُ فیها ما حدَّ فی مثلها لک » . قلتُ : « یاسیدی ! فما قوله ؟ » فقال الرشید :

« من کف ساقیةً ناهییک ساقیةً كانت لربِّ قیانٍ ذی مغالبةٍ فقد روتَ ووَعَتْ عنهن ، واختلفت حتى إذا ما غلاماءُ الشباب بها وُجِّشتْ بِحَفِیِّ اللحظِ فأنجمشتْ تَمَّتْ فلم یر إنسانٌ لها شَبهاً تلك التي لو خَلَّتْ من عَینِ قَیمِها	فی حسنٍ قدِّ وفی ظَرْفٍ وفی أدبٍ بالکَشخِ محترفٍ ، بالکَشخِ مکتسبٍ ما بینهن ومنَ یهَوِّینَ بالکتبِ وأفعمتْ فی تمامِ الجسمِ والقصبِ وجرَّتِ الوعدَ بین الصدقِ والکذبِ فیمن براَ اللهُ من عَجْمٍ ومن عربٍ لم أقضِ منها ولا من حبِّها أربی »
---	---

وأقطع مما تقدم فی تقدیر الرشید لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدره ما رواه یوسف بن الدایة ، قال : غاب أبو نواس عنا وعن إخوته غیبةً طویلة متصلة فلم نعرف له خبراً . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً ، حتى مضى نحو من سنة ، فظُنَّ أنه قُتل . وبلغ ذلك الرشید فقال : « والله إن صحَّ أنه قتل لأقتلنَّ قاتله ولو کان محمداً ولدی . انظروا کلَّ من کان هجاء من الناس

فاكتبوا اسمه وارفعوه إلى » . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا على ! قد غبت عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت في موضع أرتضيه وأشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحد من إخوانه إلا عدله ، وقالوا : « إن في هذا تعريضا لنفسك لآفات » . فأنشأ يقول :

إني لفي شغلٍ عن العالمين بالراح والريحان والياسمين

عند غزالٍ حسنٍ وجهه قلبي حبيسٌ بهواه رهين

ونذكر إلى جانب ذلك حديث حسين بن الضحاك الشاعر - وقد كان وأبو نواس ترَبَّينِ نشأ في مكانٍ واحدٍ وتادبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين - قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلي وأقام مدةً ، واتصل بي ما آل إليه أمره ، وبلغني إيثار السلطان وخاصته له ،

فخرجتُ عن البصرة إلى بغداد ، ولقيتُ الناس ومدحتهم وأخذتُ جوائزهم وعددتُ في الشعراء ، وهذا كله في أيام الرشيد ، إلا أني لم أصل إليه » .

وأخيراً ما نقله بعض الرواة عن مطيع - وكان خادماً للبركة ثم دخل بعدهم في خدمة الرشيد - قال : كنت واقفاً على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس (وذلك بعد قفوله من رحلته إلى مصر كما سيأتي) فقال له الرشيد : أنشدني قولك في الخصيب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتي » فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

فإن يك باقى إفاك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

قال له الرشيد : ألا قلت : « فباق عصا موسى بكف خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لى » .

وأحسبنا بعد هذا الذى سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين إذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال البرامكة .

ولكن الذى لا نرجحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومناذمته له على الوجه الذى يقولون . فقد كان خلفاء بنى العباس حتى ذلك الحين - مع تفرج من تفرج منهم ببعض اللعب واللهو - محافظين على وقار الملك . كما أن لهوهم لم يكن كله لهو ترف . فقد كان المهدي مولعا بالصيد واللعب بالدبوق والصوالة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان فى الميدان ، إلى جانب لعبه بالكرة والطبّطاب ورميه فى البرجاس بالشاب مع احتفاله بشهود السباق وكفه بالشطرنج . ثم انهم حتى فى خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذل وطرح الاحتشام . فالمهدي كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشاراً عن الفحش فى الغزل ، وإذا حنّ إلى سماع شئ منه قال لبشار : « قل فى الحب شعراً ولا تطل ولا تسم أحداً » وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية فى عتبة متغزلا :

ألا إن ظبياً للخليفة صادنى ومالى على ظبي الخليفة من عدوى
غضب الرشيد وقال « أسخر منا ، فعبت ! » . وأمر بحبسه وطال فى الحبس مكثه . وكان المهدي يسمح لمناذميه فى مجلس السماع أن يشربوا

وإن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى إبراهيم الموصلى يشرب فى منازل الناس ، ويتبدل معهم ويحيثه منتشياً ، أمر به فضرِب وحُبس . والرشد على حبه للتعلم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحجّ ومعاه مائة من الفقهاء ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلثائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة . وكان يكره الخوض والمراءى فى الدين ، وتسرع دمعته حتى تخضلّ لحيته لوعظ الواعظين .

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح فى العقل اتخاذهم مثل أبى نواس جليساً ملازماً ، وإنما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديم حين ولّى الخلافة محمد الأمين .

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد فى خزائن الدولة والمتحكم فى رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وإن لم يكن فى طبقتهم فى هذا الباب قد كانت له مع ذلك فى المديح أبياتٌ يعدونها من غرر الشعر وفرائده .

وقد نظم الشاعر فى انتصارات جيوش الخليفة فى آسيا الصغرى على جيوش الروم - حين قطع صاحبهم تقفور الجزية - قصيدةً فى مدح الرشيد يقول فيها :

إِنى خَلَفْتُ عَلَيْكَ جَهْدَ أَلِيَّةٍ ^(١) قسماً بكل مقصّرٍ ومحلقٍ

لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقي
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وصناعة الشعراء إن أنفقتها^(١) نفقت، وإن أكسدتها لم تنفق

وفي سنة ١٨٩ تمّ للرشد أخذ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين
فلأماون فالمؤمن، واحداً بعد الآخر. فقال شاعرنا في ذلك :

تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هارونا على الخلفاء
نزأل بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمانة

ولما أن شخص هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب عام
١٩٠ واتخذ قلنسوةً يلبسها مكتوباً عليها (غاز - حاج) تبارى الشعراء في
ذكر ذلك، فقال أبو المعالي الكلابي :

من يطلب لقاءك أو يُردّه فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر^(٢) وفي أرض الترفه فوق كور^(٣)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا في ذلك :

هارون ألفنا ائتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان
في كل عام غزوةً ووفادةً تنبت بين نواها الأقران^(٤)
حجّ وغزو مات بينهما الكرى باليجمات شعارها الوخدان^(٥)

(١) روحيتها (٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير

(٤) تنقطع حبال المطايا (٥) اليجمات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير .

والظاهر أن الشاعر لم يكن موقفاً في هذا الميدان ، وأنه كان لغيره فيه قصبُ الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فعزم على الخروج إلى مصر .

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قومٍ لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الأمصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك في ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمي الذي تنسب إليه منية بني خصيب المعروفة اليوم في صعيد مصر بالنيا . وكان الخصيب هذا رئيساً في أراضيه ، فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي ، ثم انتقل إلى إمارة الخراج على مصر كما روينا . والذي عليه الرواة أن الخصيب كتب إلى أبي نواس يستزيه وهو من خواصه فخرج إليه . وخرج في وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبي نواس ، حتى اجتمعوا بالرفقة . فقال بعضهم لبعض : « هذا أبو نواس يمضي إلى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحدٍ معه ، فازجعوا عن قُرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار إليهم مسلماً ، ثم قال لهم : « قد بلغني ما عزتمت عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نضطحب ، فإني والله لا أبداً إلا بكم » . فشكروه ، وسكنوا إلى قوله ، ومضوا حتى قدموا مصر . واتصل خبرُ أبي نواس بالخصيب ، فجلس له جلوساً عاماً في مجلس جليل . ودخل أبو نواس إليه ، والشعراء في دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيُّها الملكُ المؤمِّلُ قد استزرت عصبة فأقبلوا
وعصبةٌ لم تستزهم طفلاً رجوك في تطفيلهم وأملوا
وللرجاء حُرمةٌ لا تجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصيبُ قوله وكلُّ من حضره ، وقال له الخصيبُ : « من شريكك ؟ » فعرفه أبو نواس خبر الشعراء ، فقال : « اجلس فقد رزَّ لهم صلاتهم ، على حسب مقاديرهم في نفسك » . فقد رَّ أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقَّع بإطلاقها ، فأطلقت من وقتها . وقال له : « اخرج فقرِّبها عليهم ، واصرفهم » ففعل ذلك ، وعاد إليه .

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الإكرام وقرَّبه ورفع موضعه . ولما استقرَّ به المجلس استنشده وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس : « هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنَّ . فأذن لهم في الإنشاد ، فإن كان شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت » . فاستنشدهم الأميرُ فأنشدوا المدائح فيه . فتبسَّم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره . ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدةً هي بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون » . فقال : « هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغاته مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسور ما يُرجى لديك عسيرٌ
وفي القصيدة عدا المديح المعتاد وصفٌ للقافلة السيارة ورحلته معها من

فأعراق عابراً البيداء إلى البلاد الشامية قاصداً مصر . وقد أتى الشاعرُ في هذه القصيدة على المنازل التي مرَّ بها والبلاد التي حلَّ فيها .

ولقد اهتزَّ الخصب لما جاء على لسان الشاعر من المديح وأمر له بالجوائز السنية .

ويقال ان المصريين شغبوا في هذه الأثناء على الخصب لزيادة الأسعار واشتداد الغلاء . وماج الناس في المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصب نفسه وهو على شربه وعنده أبو نواس . فقال الشاعر : «دعني أيها الأمير أكلهم» . فقال الأمير : «ذاك إليك» . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ، وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تثبوا وثب السفاة^(١) فتحملاوا على حدّ حامى الظهر غير ركوب^(٢)
فإن يك باقى إفاك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب
فلما سمعها الجمع تفرّقوا فلم يبق منهم أحد .

ونظم الشاعر أكثر من قصيدة في الخصب ، نختما بقوله :

أنت الخصب وهذه مصر فتدققا فكلا كما بحر
النيل ينعش ماؤه مصرأ ونداك ينعش أهله الغمر

(١) الحية (٢) يريد بهذا الوصف السيف

وقد أصدر الخليفة في ٧ رجب سنة ١٩١ أمره لواليه على مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج. فانتهت بذلك إمارة الخصب. وعليه تكون إمارة الخصب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠ إلى ٧ رجب سنة ١٩١ وتكون السنة التي قيل ان أبا نواس قضاه في ربوع مصر واقعة في هذه المدة. ومدح أبو نواس في مصر آل حديد وغيرهم ، فمن حرموه عاد فذمهم على عادة الشعراء . وكان يستحب من مصر جوها السجسج ويقول غابطاً لأهلها « إن دنياكم مستوية لا حر ولا برد عليكم . وإنكم تنصرفون في حوائجكم سائر نهاركم في أوله وآخره وفي وسطه ، وليس هذا لأحد غيركم » ، إلا أنه كان ممتلياً القلب رعباً من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والأخبار عن تماسيحه . ولا نشك في أنه قضى المدة التي قضاه في مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه في بعض شعره بأنه من خوف التماسيح لم ير النيل رأى العيان اللهم إلا في القلال والكيزان :
أظهرت للنيل هجراناً ومقليةً إذ قيل لي إنما التماسح في النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كذبٍ فما أرى النيل إلا في البواقي
كما أنه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها إلا ما كان يحمل إلى الخصب . وقد سقط من الشعر الذي قاله بمصر والشام كثير . ويحكى أنه لما انصرف من مصر مرّ بمص فرأى كثرة خمّاريها ، وجودة الشراب بها ،

وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه منه ، فأقام بها مدة معتبلاً ومصطبحاً . ثم مرّ بعانة فسمع اصطخاب الماء في الجداول ، فأقام فيها ثلاثاً يشرب من شرابها ويتغنى بقول الأخطل :

من خمر « عانة » ينصاع الفؤاد لها بجدول صخب الآذنى مؤار
فلما دخل إلى الأنبار تسرع إلى بغداد وقال : « ما قضيت حق قطربل
إن لم أبطوئها » . فعدل إليها ، فأقام ثلاثاً حتى أتلّف فضيلةً كانت معه من نفقته وباع رداءً معلماً من أردية مصر . وقال عند انصرافه من قطربل :

طربتُ إلى قطربل فأتيتها بألف من البيض الصباح وعين
ثمانين ديناراً جياداً أعدّها فأتلّفتها حتى شربتُ بدين
رهنتُ قيصاً سابريّاً وجبةً وبعثتُ إزاراً معلّم الطرفين
وقد كنتُ في قطربل إذ أتيتها أرى أنى من أيسر الثقلين
فروّحتُ عنها معسراً غير موسرٍ أقرطس في الإفلاس من مثين
يقول لى الخمار عند وداعه وقد ألبستنى الراخ خفّ حنين
« الأرحُ بزَيْنٍ يومَ رُحتَ مودعاً » وقد رُحتُ منه يومَ رُحتُ بشين
وعلى هذه الحال من الشوق إلى حياة بغداد ، عاد شاعرنا إليها ليستأنفه

فيها باطله وهو بعد طول حنينه في مصر إليها :

إذا ذُكرتُ بغدادُ لى فكأنما تحرك في قلبى شباةً سنان
وفي هذه الحقبة كان الخليفة هارون الرشيد يزيد مع السنّ والعدة شدةً

وتزمتا . وفوق ذلك فقد ذهب البرامكة ولم يغن عداتهم غناءهم ولم يقوموا بمقامهم ، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الأمور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقمع الفتن في الأطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة إلى الغضب وإنزال النقمة .

وقد أصاب الشاعر السكير الماجن من ذلك الكثير . فحبسه الخليفة في المطبق أكثر من مرة لشربه الخمر مجاهراً بها متهتكاً فيها . فكان يقضى وقته يعبت مع من يكون معه في الحبس ويلعبه الشطرنج والنرد . واتهم أبو نواس كذلك أكثر من مرة بالزندقة . من ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة . فدخل ، فقام في الصف الأول ، فقرأ الإمام الآية « قل يا أيها الكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبيك » . فلما قضيت الصلاة اندفع إليه المصلون ولببوه . وانتهى أمره إلى أن دفع به إلى حمدويه صاحب الزنادقة . ولولا علم حمدويه أنه ماجن وليس هو بحيث يُظن ، لكان قد قضى عليه .

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبي نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها إلى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلسا ، وأفاض من حضره في ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتصل بالذكر بأبي نواس ، فغمز عليه سليمان بن أبي جعفر ،

فقال : « يا أمير المؤمنين ! كافرٌ بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة » . وقد كان نعى إلى الرشيد من خبره شيء . فقال : « يا عم ! هل تأثر عنه من ذلك شيئاً ؟ » . قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظرًا في الدين ما الأمر ؟ لا قدرَّ صحَّ ولا جبر !
ما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموتُ والقبرُ
ثم قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السرِّ وذاك أنى أقول بالدهر
وليس بعد الممات مرتجع وإنما الموت بيضة العُقر
فاستشاط الرشيد غضبًا وطار شققًا وقال : « علىَّ بآبن الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « إن أذن لى أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأفظع مما أنشده أبو أيوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله فى غلام نصرانى :

تمرُّ فاستحييك أن أتكلما ويشنيك زهو الحسن عن أن تسألا
ويهترُّ فى ثوبيك كلَّ عشية قضيبٌ من الريحان شبَّ منعا
بحسبك أن الجسم قد شقَّ الضنى وأن جفونى فيك قد ذرفت دما
أليس عظيمًا عند كل موحدٍ غزالٌ مسيحىٌّ يعذب مسلما
فلولا دخول النار بعد بصيرة عبتُ مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال : « يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك » . قال : « هات ! » فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر :

وملحة بالعدل ذات نصيحة ترجو إنابة ذى مجون مارق
بكرت تبصرنى الرشاد وهمتى غير الرشاد ومذهبي وخلائقي
فأجبتها: « كفى ملامك إننى مختار دين أفسه وجثالقى
والله لو لا أننى متخوف أن أبتلى

وقطع الإنشاد. فقال له الرشيد: « بماذا ويلك ! » . فاستعفاه ، فقال :
« ويلك ! بماذا » فقال :

..... بإمام جور فاسق

فضج المجلس بأهله ، وأنكر الرشيد نفسه ، ثم قال : « امض » . فقال :

لتبعته فى دينه ودخلته ببصيرة منى دخول الوامق

إنى لأعلم أن ربى لم يكن ليخصهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل : « برئت من المنصور إن لم ييت هذا الكلب فى
المطبق لتنكرنى قولاً وفعلاً » . وكان أبو نواس نعى إليه الخبر فساخ فى
الأرض . فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك ، فوجد ، فأودع
المطبق . ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها إلى أن أطلق ، فقال فى ذلك :

الله فرج لى برأى الفضل من حلق الكبول

وأقالنى عنت العنا ر وقد أيست من المقل

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الى الرشيد من قوله يفتخر بقحطان التى يدعيها ،
ويسب عدنان ويهجوها فى قصيدة طويلة يقول فيها :

فانخرُ بقحطان غير مكتئبٍ فحائمُ الجودِ من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها إذ زلتَ الهامُ عن مناقبها
واهجُ نزاراً وأفرَ جلدتها وهتكتَ الستر عن مثالبها

وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم قراء التاريخ العربي . وكانت في ذلك العهد تهيج بالشام خاصة ، وقد بلغت في بعض أطوارها هيجاً تشب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلاقى كل مرة عنتاً في إخمادها ، يوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف ، وكانت مع ذلك لا تسكن حتى تعود . فلما بلغت إلى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثنائه للنبي محمد دون سائر قريش « ذات المتاجر » في هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه إلى أن شطر الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحبُّ قريشاً لحبِّ «أحمد» واعرف لها الجزلَ من مواهبها
إن قريشاً إذا هي انتسبتُ كان لها الشطر من مناسبتها
فأم مهديٍّ هاشم - أم موسى الخير - منّا ، فافخر وسام بها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من محاسبتها
وإنها - إن ذكرت مكرمةً - جاءت تجارتها بغالبها
وإذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة ، فذلك أن الأمر كان يعدو شخصَ الخليفة الهاشمي القرشي إلى تعريض البلاد للفتن الداخلية .

فأمر الخليفةُ بالشاعر المنكود فأُلقي في غيابة المطبق انتظاراً لموت فيبقى فيه دهرًا . فجعل يتشفع بالوزير الفضل بن الربيع وهو لا يستطيع له شيئًا . فقال متحسرًا لما صار إليه ، متندماً لما تورط فيه ، متسخطاً على الفضل :

على مرّكبي مني السلامُ ، وبرّتي وغدواتٍ لهُوٍ قد فقَدَنْ مَكَانِي
فلو أنْ خِدْنِيَّ القريبين أبصرا خضوعيَ للسَّجَانِ ما عرفاني
ولو أبصراني والقيود تقودني ومشيي إلى البواب بالنجشان^(١)
لحى الله من أمسى يرشح نصره بفكِّ إيسارٍ منه عند يميني
ومالٍ وقحطانًا وبثٍّ مديحها ونصبي لها نفسى بكل مكان
فإنْ أُمْسٍ لا تُخشى لسيفي فتكةُ فلا تأمنْ يا (فضلُ) فتكَّ لساني
وإني لأرجو أن أراك كجعفر^(٢) ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هارون مترلفاً يرجو وساطته ، ويعلن لله توبته وإنباته :

تلقَى المراتبَ للحسين ذليلةً وإذا سواه يرومها تتصعبُ
إنَّ الإمام إذا اجتباك لسره لمَسَدَدٌ فيما أتى ومصوبُ
لم يَبْلُ مثلكَ عَفَّةً فيما بلا وحزامةٌ في كل أمرٍ يحزُبُ
وخلطتْ خوفكَ للآلهِ بخوفه فعلمتَ ما تأتني وما تتجَبُّ

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة في الثمن بقصد التغيرير وإيقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكي الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط

أبلغ هُدَيْتَ - إلى الإمام رسالةً عني بأني بعدها أستعجب
وشهادتي أني حليفُ عبادةٍ فابلوا على الأيام ذاك وجربوا
وكتب إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيدة :

جَعَلْتُ عَبِيدًا دُونَ مَا أَنَا خَائِفٌ وَصَيَّرْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ يَدِ الدَّهْرِ
أشار إليه الناسُ من كلِّ جانبٍ وقالوا أبو عمرو لها وأبو عمرو
ثم التَّجَّأ إلى الأمير الحسين بن عيسى بن أبي جعفر المنصور مستغيثًا
مستصرخًا :

رَفَعَ الصَّوْتَ فَنَادَى يَا أَبَا عَيْسَى الْجَوَادِ
كُنْ عَمَادًا - يَا ابْنَ مَنْ كَانَتْ غِيَاثًا وَعَمَادًا
وَتَدَارَكَ جَسَدًا قَدْ مَاتَ أَوْ قَدْ قِيلَ كَادًا
قُلْ لَهُ إِنْ قَالَ « هَلْ تَا ب ؟ » « نَعَمْ تَابَ ، وَزَادَا »
وَاضْمَنْ التَّوْبَةَ عَمَّنْ كَلَّمَا أَطْرَاكَ عَادَا

ولما أعيته الحيلةُ ولم تنفع الشفاعةُ ، توجَّه إلى الخليفة نفسه ضارعًا
مستغفرًا ذا كرامٍ محامدَه معدَّدًا ما ثره :

بِعَفْوِكَ - لَا بِجُودِكَ - عُدْتُ لَا بِلَافْعُوكَ
فَلَا يَتَعَذَّرُنَّ عَلَيَّ عَفْوُكَ وَلَا حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّ أَخَوَانًا
فَإِنِّي لَمْ أَخْنُكَ بِظَهْرِ غَيْبٍ وَحَصْنًا دُونَ بَيْضَتِهِ حَصِينًا
بِرَاكِ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ عَزًّا وَتَرْكِهِمْ وَمَا يَتَذَمَّرُونَ

تزورهم بنفسك كل عام زيارةً واصل للقاطعين
ولو شئت اكفيت إلى نعيم وقاسى الأمر دونك آخرون
فشفع حسن وجهك في أسير يدين بحبك الرحمن ديننا
إذا ما الهول حل بدار قوم فليس لجار مثلك أن يهونا
ولكن الخليفة كان في شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة
الفتوق قبل اتساعها في أطراف ملكه . ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة
عليه لحرب رافع بن ليث الثائر في خراسان مصطحباً معه المأمون الذي جعلت
له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤمن على الرقة وكان
الخليفة قد اتخذها مقراً له ونقل إليها خزانته في ذلك الحين ، واستخلف على
بغداد عاصمة الخلافة وليَّ عهده والخليفة من بعده محمداً الأمين .

نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد في غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، في قرية بالقرب من طوس ، بعلة في حشاه كانت لا تزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحول من قصر الخلد وكان نازلاً فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبي جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فصلى بهم وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا إليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقاها ابنها الأمين خارج المدينة في جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وأنزلها معه في قصر الخلافة .

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضلُ جميع ما في المعسكر مما أوصى به الخليفةُ الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو يقول : « لا أدع مَلِكاً حاضراً لآخر لا يُدْرى ما يكون من أمره » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللاحاق بالأمين ، ففعل أكثرهم حجةً منهم بالحق بأهلهم ومنازلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفةُ الجديد ما قدّمه فاستوزره .

وكان الأمين قد تلقى في صباه على الكسائي وعلى بن المبارك الأحمر وغيرهما من المؤدّبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرّوه القرآن ، وعرفّوه الآثار ، وعلمّوه الشنن ، وروّوه الأشعار ، وبصّروه بمواقع الكلم وبُدْئِهِ ، مع ما يجب على الخليفة العباسي من تعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، وما الى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه ، ومع ذلك كانت طبيعة اللهو هي الغالبة عليه ، وظلّ على ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والإماء في رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بني هاشم بأهوائهم إليه تعصباً لولّد الهاشمية على ولد الفارسيّة ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر للمأمون .

فلما أن أفضت إليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت - أي بعد البيعة له في بغداد بيوم ، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر الخلافة في المدينة للصوالة واللعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتبّت له

الأُمُور واطمأن باله من ناحية الملك ، وجّه في طلب المُلْهِنين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخُصِيان وأبتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رَمَى بهن ، وصيّر الخُصِيان خلوتَه في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيهِ ، وفرض لهم فرضاً سَمَّاهم الجِرادِيَّة ، وفرضاً من الحبشان سَمَّاهم الغِرايِيَّة ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخُصِيان في المَنادِمَة والشرب . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ يعاقر فيه شرب الخنْدَرِيسِ
وما للغانيات لديه حظٌ سوى التقطيب بالوجه العَبُوسِ
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحُنا بعد الرئيسِ
فلو علم المقيم بدار طوسٍ (١) لعزَّ على المقيم بدار طوسِ

وبديهي ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين الندمان والخُصِيان أن يجرى في الجماعة ذكرُ الجون والجان ، وأن تروى - فيما هم بسبيله - طرائفُ النوادر والأخبار ، ونشد لطائف الأشعار . ولا نزاع في أن النواصي كان أشهر خلاء ذلك الزمان وأجراهم شعراً على كل لسان ، فلا جرم يتردد في المجلس اسمه ويُستعاد شعره . والخليفة لاشك عندئذ ذا كرهه ، فقد دخل عليه مع الكسائي في بعض درسه ، وكان يغشى حضرته ويشترك في منادمته أيام إمارته . فلما أن سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوسٌ لما يَزَلُ في المُطَبَّق » فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى إسحق بن فراشة وسعيد بن

(١) يريد الرشيد لدفته بطوس

جابر أخو الخليفة من الرضاة إلى أبي نواس في محبسه فقال له يُطَمِّنَانِهِ :
 « إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس ». فنظم الشاعر أبياتاً
 بعث بها إليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام السامرون ولم يؤاسوا
 آمين الله ، قد مُلِّكتَ مُلْكاً عليك من التقى فيه لباس
 ووجهك يستهلّ ندَى فيحيا به في كل ناحية أناس
 كأن الخلق في تمثالِ روح له جسد ، وأنت عليه راس
 آمين الله ، إن السجن بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك بأس
 فلما أنشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشيّة قال : « صدق ، علىّ به »
 فحى به في الليل فكسرت قيودَهُ وأخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو
 مائل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ صيغَ من جوهر الخلافة بحثنا
 يا أمين الإله يكلؤك الـ ه مقيماً وظاعناً أين سرتنا
 إنما الأرض أكلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كنتنا
 وسرّ الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه .

ومما يجب ذكره لأبي نواس شاهداً على طيب نفسه ، وسلامة صدره
 من الضغن الذي يُعمى ويُصمّ ، وارتفاعه بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغيّر رأيه
 في الرشيد بعد موته ، ولم يخلُ من حزنٍ عليه مع حبسه إياه ، ولم يحدد إحساناً

أسلفه إليه وأسداه . فتراه لا ينسى وهو يفتي الخليفة الجديد ويظهر سروره به
أن يبكي الخليفة الراحل ويذرى عليه دمه :

جَرَّتْ جوارٍ بالسعد والنحس فنحن في ماتم وفي عرس
القلب يبكي ، والسن ضاحكة ، فنحن في وحشة وفي أنس
يضحكننا القائم الأمين ، ويُبَكِّينَا وفاة الإمام بالأمس
بدرآن ، بدر ضحى ببغداد بالـ خلد ، وبدر بطوس في رمس
وقد عاد ثانية إلى رثائه في قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزون وذى سقامٍ بكف الموت مرهون
من ذا يُسرُّ بدنياه وبهجتها بعد الخليفة ذى التوفيق هارون
كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم
بحياة مولاه الخليفة الجديد ، بما لا يخرج عن قول أبناء زماننا « مات الملك ،
ليجى الملك » :

تعزَّ أبَا العباس عن خير هالكٍ بأكرمٍ أحى كان أو هو كائن
حوادث أيامٍ تدور صروفها لمن مساو مرةً ومحاسن
وفى الحى بالمت الذى غيب الثرى ، فلا أنت مغبون ولا أنت غاب
وكان الفضل ينزل في بغداد في الشارع الأعظم بازاء درب السقائين ،
وقد صارت الأمور كلها إليه وفوض إليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى
ويعزل ويحل ويعقد عنه . واحتجب الأمين ، وفي ذلك يقول شاعرنا
يمتدح الفضل :

لعمر ك ما غاب (الأمين محمد) عن الأمر يعنيه إذا شهد (الفضل) ولولا مواريتهم الخلافة أنها له دونه ما كان بينهما فضل لئن كانت الأجساد فيها تباينت فقولها قول وفعلهما فعل أرى (الفضل) للدنيا وللدن جامعا كما السهم فيه الريش والفوق والنصل وذهب الأمين في الاحتجاب حتى عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهو ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذي وباب الأنبار وغيرها ، ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير . وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وانقطع عن تدبير المملكة مشغلا عنها باللهو واللعب ومعاشرة الجان ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خشيانه وجلسائه ومحدثيه .

ولما أن رأت الملكة والدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين للخصيان ورقعه منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ، أرادت صرفه عن ذلك ، فاتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطيق والمناطق ، فمست قدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن إليه ، فاختلن بين يديه ، فاستحسنهن واجتسذن قلبه وأبرزهن للناس في مجالسه . فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق . وامتلاّت بغداد بهؤلاء الفتيات اللواتي كانوا يسمونهن «الغلاميات» .

وكان للأمين كآبيه الرشيد تولع بالغناء ، مع الفارق في وقار الوالد ونزق ولده . وكان يهيا له في قصر الخلد مجالس غناء يُتَغَنَّى فيها ، فيُرفع له دكان عال يُفرش له ويُبسط عليه بساط زرعى ، وأُطرح عليه ثمارق وفرش في لون البساط ، ويُصَفِّف له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمر عظيم . وتكون قيمة جواريه قد هيأت له مائة جارية صانعة ، فيصعدن إليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعدات إليه ، وحين يستوين على الدكان يندفعن في غناء لحن من اللحن بصوت واحد ، ثم ينزلن ويتقدم عشر غيرهن ، وهكذا دواليك في جو فائن ساحر بما يتمايل فيه من القدود المليحة وما يتجاوب به من اللحن الفصيحة .

وكان يُجزل العطاء لأساطين الغناء في عهده أمثال إسحق الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليروى أنه استقدم إبراهيم بن المهدي عمه فأنحدر في زورق إلى قصره ، وغناه صوتاً طرب له الأمين فأمر أن يُوقروا له زورقه ذهباً . كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يُديرها بنفسه في أبهاء القصر الملوكى ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من الشمع الكبار وكان الصحن من ذلك في نهار ، وإذا الدار مملوءة غلماناً ووصائف بحلل الوشى والجوهر ، وإذا الجوارى والخنثون يزمرنون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع في شئ واحد ، ومحمد في وسطهم يرتكض رقصاً في السكرج . ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدي إحدى هذه الحفلات ،

وكان الخليفةُ وجهَ مَنْ جاء بهما ركضاً . وقد جاء في وصفهما لما مرَّ بهما في تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءها رسول الخليفة فقال: «قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، فارفعاً أصواتكما مع السرناى أين بلغ ، وإيّاكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصغياً للغناء المردّد :

هذى « دنانيرُ » تنسأني وأذكرها وكيف تنسى محبّاً ليس ينساها
والله ، والله ، لو كانت - إذا برزت - نفسُ المتيّم في كَفْيهِ ألقاها
فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان حلقهما مع السرناى ، ويتبعانه حذراً
صن أن يخرجاً عن طبقته أو يقصّرا عنه . والخليفة الأمين يجول في الكرج
ما يسأله ، يدنو إليهما مرةً في جولانه ، ويتباعد مرةً ، ويجول الجوارى بينهما
ويبنيه ، حتى الغداة .

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوى الاحتمال له ، يجدّ بندمائه
في الشرب ويسقيهم معظم الليل وعلى الزيق . وكان إذا انتشى صاح في ندمائه
« مَنْ منكم يكون حمارى » فكلّ واحدٍ يقول « أنا » لأنه كان يركب
الواحد منهم عبثاً ثم يَصِلُه . ولم يكن لأحدٍ غلبةٌ عليه في الشرب غير
أبى نواس .

ولقد أنشد أبو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد عدةً في مدحه .
ولكن القارىء لها لا يلمس فيها من صدق الإعجاب بالمدح ما يلمسه في
هذه القصيدة التي قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

وَنَدْمَانِ يَرَى غَبْنًا عَلَيْهِ بَأْنَ يَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ انْتِشَاءُ
 إِذَا نَادَيْتَهُ مِنْ نَوْمٍ سَكْرٍ كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّدَاءُ
 فَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ « اِيه ، دَعْنِي » وَلَا مُسْتَخْبِرٌ لَكَ « مَا تَشَاءُ ؟ »
 وَلَكِنْ « يَا سَقْنِي » وَيَقُولُ أَيْضًا « عَلَيْكَ الصَّرْفُ إِنْ أَعْيَاكَ مَاءُ »
 وَذَاكَ مُحَمَّدٌ تَقْدِيهِ نَفْسِي وَحَقٌّ لَهُ وَقَلٌّ لَهُ الْقَدَاءُ
 وَلَقَدْ أَجَاذَهُ الْأَمِينُ عَلَيْهَا بِكُلِّ بَيْتٍ أَلْفَ دَرَاهِمٍ .

وكان أبو نواس في بعض الأحيان لا يتورع حتى في مدائح الرسمية
 للخليفة الشاب أن يشير إلى منادمته له وشربه معه . من ذلك قصيدته الأولى
 في مديحه وهي المطولة المشهورة التي مطلعها :

يَا دَارُ ، مَا فَعَلْتُ بِكَ الْيَوْمَ ضَامَتِكَ ، وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ
 وَهُوَ مُطْعَمٌ فِي وَصْفِ الرُّسُومِ وَالْدِيَارِ ، تَحْيَى بَعْدَهُ أَيْبَاتٌ فِي طَيِّ الْفِيَاثِ
 وَتَجَشَّمُ الْأَسْفَارَ مِنْ أَجْلِ الْمَدُوحِ جَرِيًّا عَلَى الْمَذْهَبِ التَّقْلِيدِيِّ . وَلَكِنْ الشَّاعِرُ
 النَّدِيمُ لَا يَلْبَثُ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِ نَزْعَتُهُ فَيَجْرِي عَلَى طَبْعِهِ وَيُخْلِصُ إِلَى طَرِيقَتِهِ :
 مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَعْدَكَ التَّيْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ
 فَالْبَهْوُ مُشْتَمَلٌ بِبَدْرِ خِلَافَةٍ لَيْسَ الشَّبَابُ بِنُورِهِ الْإِسْلَامُ
 إِنْ الَّذِي يَرْضَى الْإِلَهَ بِهَدْيِهِ مَلِكٌ تَرْدَى الْمَلِكُ وَهُوَ غَلَامُ
 وَلَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا يَرُودُهُ مِنْ اسْتِغْرَاقِ الْخَلِيفَةِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ فِي اللُّهُوِ
 وَالشَّرْبِ ، وَإِظْهَارِهِ الْإِهْمَالَ لَشُؤُونِ الْمَلِكِ ، حَتَّى كَانَتْ تَمُرُ السَّنَةُ لَا يَفْرُغُ

فيها ساعةً للنظر في أخصّ الأمور، كأعمال الخراج والضيايع ومتصرفات الحكام. دخل عليه يوماً إسماعيل بن صبيح كاتبه ، فإذا هو عازمٌ على الاصطباح ، وقد أحضر الندماء والمغنين وصفت الموائد ، وأقبل الخليفة على مائدته وابتدأ . فقال إسماعيل بن صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضيايع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمالٍ منذ سنةٍ لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخولٌ خلل في الأعمال » . فقال له محمد : « إن اصطباحي لا يحول بيني وبين النظر ، وفي مجلسي من لا أنقبض عنه ، من عمي وبنی عمي وإخوتي ، وهم أهل هذه النعمة التي تجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فأعرضه على وأنا آكل ، لأقدم إليك فيه بما تحتاج إليه ، إلى أن يُرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقی ، ولا أسمع سماعاً أو أبرم الباقي وأفرغ منه . فحضر كتاب الدواوين بأكثر ما في دواوينهم ، وأقبل إسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر وينهى بأحسن أمرٍ ونهىٍ وأشدّه ، وربما شاور مَنْ حوله في الشيء بعد الشيء ، وكلما وقع في شيءٍ وُضع بالقرب من إسماعيل بن صبيح . ورفعت الموائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب في القدح أقلّ من رطل واحدٍ في تتميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، ففاجاه بشيءٍ أسره إليه ، ففضى ثم عاد ، فلما رآه نهض واستنهض سليم بن علي وإبراهيم بن المهدي ، فامشوا عشر أذرعٍ ، حتى أقبل جماعةٌ من النفاطين ، فضربوا تلك الكتب والأعمال بالنار ، وكان

الفضل بن الربيع حاضراً . فلهق محمداً وقد شق ثوبه وهو يقول : « الله الله - أعدل من أن يرضى ذلك » ومحمدٌ يضحك .

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، إن وافى الأمين أجله وولى الخلافة المأمون أن يجزيه شرّاً بفعلته . فجعل يُزين للأمين صرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وهو يومئذ طفلٌ صغيرٌ لا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه في ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الأمين والمأمون ومكر كل واحدٍ منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين الأخوين . فقطعت الدروب من بغداد إلى خراسان وقُشت الكتب وصعب الأمر . وفي شهر ربيع الأول عام ١٩٤ عقد الخليفة لابنه « موسى » على جميع ما استخلف عليه وأسقط اسم المأمون من الخطبة في بغداد وقبض على وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان . ونما الشر بينهما . وبقدر ما كان عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفول . وسارت الركبان تغدر محمد الأمين بأخيه وقبح سيرته ، مع حُسن سيرة المأمون وما كان يُظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الأمين وانحرفوا عنه . وفي سنة ١٩٥ جهز الخليفة على بن عيسى بن ماهان ومعه عسكريٌ كثيفٌ وسلاحٌ كثيرٌ وأموالٌ وافرة . وخرج معه الخليفة مشيعاً مودعاً . ثم تشاغل بعدها بلهوه وبطالته وتخلي عن كل تدبير للقائد والوزير . وشخص على بن عيسى إلى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهر

مدينة الري، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى .
وكان ذلك جميعه ، والأمين في غفلةٍ سادرٍ في لذته ، منهمكٌ في لعبه
متفرغٌ لصيده ونزّهته . حتى ليروى أنه حين ورد نعيُّ عليٍّ قائده ، كان في
وقته ذلك على شطّ دجلة يصيد السمك . فقال للذي أخبره « ويلك ! دعني ،
فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدتُ شيئاً بعد » . على أن الأمين لم
يلبث أن أفاق للخطر ، لما شاع الخبرُ بأن المأمون أعلن خلعه بعد أن أتاه
كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه في جميع كور خراسان
وما يليها ، فجعل الأمين يتابع إرسال الجيوش والقواد واصطنع في أموره
شيئاً من الجد .

وجعل الأمين يحمل على نفسه فيخرج لقوّاده وجنده وعامّة رعيّته بين
الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكبر عندهم ما يرونه من احتجابه عنهم .
فكان يجلس لهم بعض الأحيان ساعةً من نهارٍ ، وبين يديه الفضل بن
الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكيناً
لهم ومراجعةً لآمالهم . وكان إذا جلس في مجلسه هذا أذن للناس عامةً ،
فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشئوا . بيد
أنه لم يكن أحدٌ منهم يتعدّى إلى الاطّباب والتطويل إلا أمر بالسكوت
ومنع من القول . وفي هذه المناسبات أنشد أبو نواس مدائح القصار في
الخليفة الأمين ، نذكر منها قوله :

ألا يا خيرَ مَنْ رأت العيونُ نظيرُك لا يُحسّ ولا يكونُ

وفضلك لا يحدُّ ولا يُجَارَى ولا تحوى حيازته الظنونُ
 فأنت نسيجٌ وحدك لا شبيهُ نحاشيه عليك ولا خدين
 خلقت بلا مشاكلةٍ لشيءٍ فأنت الفوقُ ، والنقلان دون
 كأن الملك لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالملك الأمين
 وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حرّاقات في دجلة على خلقة « الأسد »
 و « الفيل » و « العقاب » و « الحية » و « الفرس » ، وأنفق في عملها ما لا
 عظمياً ، وقد اتخذها للزهة . وكان إذا خرج لركوبها اصطفت له الخيل وعليها
 الرجال على شاطئ دجلة ، وحملت معه المطايخ والخرازن . وفي مرةٍ من هذه
 المرات كان ركوبه إلى الشمسية في الحرّاقة التي على مثال الأسد . فما رأى
 الناس منظرًا ولا مسيراً كان أبهى وأحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب
 أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ الْخُرَابِ
 فَإِذَا مَا رَكَبَهُ سِرْنٌ بِحَرًّا سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثٌ غَابَ
 أَسَدًا بَاسِطًا ذِرَاعِيَهُ يَعْدُو أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالْحِجَابِ الْأَنْيَابِ
 لَا يِعَانِيهِ بِاللِّجَامِ وَلَا السَّوْ طَوْلًا تَعْمُرُ رِجْلَهُ فِي الرَّكَّابِ
 يَحْبُ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صُورِ رِقَّةٍ لَيْثٍ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
 سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سِرَّتْ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
 ذَاتِ زَوْرٍ وَمِلْسَةٍ وَجَنَاحِ بَيْنَ تَشَقُّ الْعُيَابِ بَعْدَ الْعُيَابِ
 تَسْبِقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَعْجَلُوهَا بِحَيَّةٍ وَذَهَابِ

بارك الله للأمين وأبقا هُ وأبقى له رؤاء الشباب
ملكٌ تَقْصُرُ المدائحُ عنه هاشميٌّ موقِّقٌ للصواب
ولأبي نواس غير هذه قصيدة أخرى في حرّاقة على مثال الدلفين، مطلعها:
قد ركب الدلفين بدرُ الدجى مفتحماً في الماء قد لججا
ولما كان أبو نواس في مجاهرته بالمعاصي وتهتكه في السكر قد شاعت له
سمعةٌ قبيحةٌ، واشتهر بشهرةٍ فاضحةٍ، فقد وجد دعاةُ المأمون في منادمته
لأأمين واختصاصه به وجهاً من أوجه الحيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب
عليه باحتماله إياه. فكان وزيرُ المأمون الفضلُ بن سهل ذو الرياستين يخطب
بمساوئ الأمين ويحرّض الناس على قتاله، وقد أعدَّ رجلاً يحفظ شعرَ أبي
نواس فيقول: «ومن جلساء محمد الأمين رجلٌ ماجنٌ كافرٌ مستهزئٌ يقول
كذا وكذا» وينشد قوله:

ألا فاستقنى خمرأً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرأً إذا أمكن الجهرُ
وينشد قوله:

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبةٍ «قم - سيدي - نَعِصْ جَبَّارَ السموات
وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه. ويذكر أهل العراق فيقول: «أهل
فسق وفجور، وخمور وما خور». فيلعنهم من يحضر المجلس من أهل خراسان.
فكتب بذلك إلى محمد الأمين عيونه، فجنّز ع لذلك وأراد التنصل من التبعة
وإسقاط الحجة، بأن يظهر غضبه على الشاعر ويُنزل به ثقله. وكان قد
اتصل به عنه أبياتٌ أَحْفَظَتْهُ عليه، منها قوله وهو سكران:

إسـقـمـيـها يا ذفـافـه مُزّة الطعم سـلـافـه
 ذلّ عندي من جفاها لرجاء وخـافـه
 مثل ما ذلّت وضاعت - بعد هارون - الخـلافـه

ومنها قوله مفاخرًا وهو بحال من العسر والحاجة :

وقد زادني تيهًا على الناس أني أراني أغناهم وإن كنتُ ذا عسرٍ
 ولولم أنل فضلًا ، لكانت صيانتى قبي عن جميع الناس حسبي من الفخر
 ولا يطمنن في ذاك مني طامعٌ ولا صاحبُ التاج المحجّب في القصر
 فبعث الأمين بإحضاره ، وعنده أعدى أعدائه سليمان بن جعفر بن أبي
 جعفر . فلما أحضر الشاعر ومثّل بين يدي الخليفة بادره : « يا ابن اللخناء
 العاهرة » وشمته أقبح الشتم . وقال : « أنت تتكسب بشعرك أوساخ أيدي
 جميع الناس ، ثم تقول (ولا صاحب التاج المحجّب في القصر) . أما والله لأنلت
 مني شيئاً أبداً » . فقال سليمان : « وهو والله يا أمير المؤمنين من كبار الثنوية »
 فقال الخليفة : « أيشهد عليه بهذا أحد ؟ » فاستشهد سليمان جماعة شهدوا عليه
 بالشرب والفسق . فوجه به الخليفة إلى الفضل بن الربيع وأمره بحبسه مع
 قوم كانوا يتهمون بالزندقة .

وطال حبسُ أبي نواس في المطبق ، حتى يؤس من عفو الأمين ، ولم تبق
 له بارقة أمل في الخلاص إلا بدخول المأمون . وذلك في قوله :

ياربُّ إن القوم قد ظاموني وبلا اقترافٍ معطلٌ حبسوني
 وإلى الجحود بما عليه طويتي بالزور والبهتان قد نسبوني

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي ، والمجانة ديني
لا العذر يُقبل لي ، ويُفَرَّقُ شاهدي منهم ، ولا يرضون حلف يميني
أما الأمين فلست أرجو دفعه عني ، فمن لي اليوم بالمأمون !

وكان للفضل بن الربيع خالٌ يعرض أهل السجون ويتفقدهم
ويتعهدهم ، فدخل إلى حبس الزنادقة الذي فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ،
فقال له : « يا هذا أنت مع الزنادقة ؟ » . فقال له أبو نواس : « معاذ الله » .
فقال له : « فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ » . فقال له : « أنا آكل الكباش
بصوفه » . فقال له : « فلعلك تعبد الشمس ؟ » . فقال له : « إني لأتجنب القعود
فيها بغضاً لها » . فجاء إلى الفضل فقال له : « يا هذا ! لا تُحسنون جوار نِعَم الله
بحبس الناس بغير جرم » . فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخبّره الخبر .
فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره وشفع إليه فيه . فدعا به ، وأمر
بإستحلافه وأخذ العهد عليه أن يحتنب الخمر والسكر .

ولزم أبو نواس بيته من خوف المطبق ، وظلّ على ذلك أياماً يُظهر التوبة
ويتذرع بالنسك والتقوى . وإلى القارئ الصورة التي يُمثلها لنفسه كما يريده
الخليفة وزيره على أن يكون ، وهي - وان تكن صورة ناسكٍ مبتلي -
لا تسكاد تخفى ما وراءها من التهم على النسك والسخر بالناسكين :

أنت يا بن الربيع ألزمتني الذ
سكّ وعودتني ، والخير عادة
فارغوى باطلاً ، وأقصر حبلي
وتبدلت عفة وزهاده
لوتراني ، ذكرت للحسن البه
مرى في حسن سَمْتِهِ ، وقتاده

المساييحُ في ذراعَيَّ ، والمص جف في لَبَيَّ مكانَ القلادِ
 وإذا شئتُ أن ترى طرفَةً تَع جب منها ، مليحةً مستفادِ
 فادعُ بي - لا عدمتَ تقويمَ مثلي - وتَفَطَّنَ لموضع السجّادِ
 ترَ أثرًا من الصلاة بوجهي توقن النفسُ أنها من عبادِ
 لو رآها بعضُ المرائين يومًا لا شترها يُعِدّها للشهادِ
 ولقد طال ما شقيتُ ولكن أدركتني على يديك السعادهِ
 وكان الفتیان يتعرضون لأبي نواس للشرب معه ، وهو يستعفيهم ويعتذر
 إليهم . فقال بعضهم : « وإن لم تشرب فأنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر
 مجلسَ شرايهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه :
 « ألم تَرْتَحْ لها ؟ » . قال : « نعم والله ! ولا سبيل إلى شربها » وأنشأ يقول :
 أيها الرأحان باللوم ، لوما لا أذوق المدامَ الا شميا
 نالني باللام فيها إمامٌ لا أرى في خلافه مستقيا
 فاصرفها إلى سواي ، فاني لستُ إلا على الحديث نديما
 إن حظي منها إذا هي دارتُ أن أراها وأن أشمَّ النسيما
 فكأنني وما أحسنُ منها - قعدِي يزِين التحكيميا
 كلَّ عن حملهِ السلاح إلى الحرب فأوصي المطيق ألا يقيما
 على أن النواسي لم يلبث أن غلب عليه طبعُهُ ونازعته إلى الخمر نفسه .
 وكيف يتنكر لها أو يسلو عنها وإنه ليحسَّ بينه وبينها نسبًا شابكًا ورَحِمًا
 ماسّةً ، فهو تارةً أبُها ، وهي تارةً شقيقةٌ روحه :

أنا ابن الحمر ، مالى عن غذاها — إلى وقت المنية — من فظام

لأئمى فى المدام — غير نصوح — لا تلمنى على شقيقة روحى

فعاد التائب السكير لسيرته الأولى فى المواخير ، عاكفاً على بنت الدنان
من جديد عكوفاً ما عليه من مزيد ، ووقف عليها أوقاته يعوض منها ما فاتته .
ورفع ذلك إلى الخليفة فأمر به فحبس ثلاثة أشهر . وقد حكى صاحب
الشرطة أنه لما حبس أبو نواس ، كان أكثر من يزوره فى حبسه المرد
والشبان ، والحمارين ، وأصحاب الرينة . ويقول صاحب الشرطة إنه عرف
منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك ، فجعل عليهم الضرائب ، ثم فقد
ذلك لما أطلق الشاعر لتفرقهم . وأخيراً دعا الخليفة به وحوله بنو هاشم
وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف يهدده بالقتل . فأنشد أبو نواس هذه
الآيات مستغظاً :

تذكرُ أمينَ الله — والعهدُ يذكرُ	مقامى وإنشاديك والناسُ حُضرُ
ونثرى عليك الدرَّ ، يادرَّ هاشم !	فيا مَنْ رأى درّاً على الدرِّ ينثر !
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله	وعثك موسى الصفوة المتخير
وجدك مهدى الهدى ، وشقيقه	أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر
ومن مثل منصوريك : منصور هاشم	ومنصور قحطان إذا عدَّ مفخر
فن ذا الذى يرمى بسهميك فى العلا	وعبد مناف والداك وحير
تحسنت الدنيا بوجه خليفة	هو البدر إلا أنه الدهر مُقمر

أيا خير مأمول يُرَجَى : أنا امرؤ أسير رهين في سجونك مقبر
مضت لي شهور - مذحُبت - ثلاثة كآني قد أذنت ما ليس يُغفر
فإن كنت لم أذنب ، فقيم حبستني وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر
فقال له الخليفة : « فإن شربتها؟ » قال : « دمي لك يا أمير المؤمنين »
فخلى سبيله .

والظاهر أن تهديد الخليفة في هذه المرة قد أفرعه وروّعه . فقد ظل زمناً
يرفض الخمر ، وكما همّ بالخالفه ذكر موقفه بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :

أطع الخليفة وأعصِ ذا عَزَفٍ وتتحَّ عن طَرَبٍ وعن قَصَفِ
عينُ الخليفة بي موكَّلةٌ عَقَدَ الحِذارُ بطرفه طرفي
صحت علانيتي له ، وأرى دينَ الضمير له على حَرَفِ
فلئن وعدتُكَ تركَها عِدَّةً إني عليك لخائفٌ خُلْفِ

وهو يذكّر في أسفٍ لا يخفى كيف كان يغدو إلى حوانيت الخمر فيملاً
زِقَّهُ من صفوها قبل الزقاق ، ويجوز قبلها قَصَبَ السباق . ولكن ما الحيلة
وهذا أمر ملك العراق ، قد جعل هلاكه في كفِّ ساق :

أعاذلُ ، لا أموت بكفِّ ساقٍ ولا آبي على ملك العراق
هجرتُ له التي عنها نهاني وكانت لي كمسكة الزِّماق
وقد يغدو إلى الخانوت زِقِّ فيأخذ عَمَوَّهُ قبل الزِّقاق
وكنَّ إذا نزعن إلى مداه حوى - قدَّ أمها - قَصَبَ السباق

على أن الشاعر وإن يكن قد أقلع عن الخمر لم يكف عن ذكرها واللمح
بأوصافها :

لولا الأمير ، وأنَّ العذرَ منقصةً والعار بالعذر عندى أقبحُ العارِ
جاءت بخاتمها من بيت خمار رُوحٌ من السكرِ في جسمٍ من القارِ
فالريحُ ريحُ ذكيٍّ الأذفر الداري والبردُ بردُ الندى ، واللون للنارِ
ولكن هذا لم يُرضِ أولى الأمر ، فشدّوا عليه في ترك التغنى بالخمر .
فكأنما قُضى على هذا التأثير على مذهب العرب في الشعر ، الساخر من أوصافهم
للطول والقفز ، أن ينعتها وإن يكن كارهاً لها :

أعِرْ شعركَ الأطلالَ والدمنَ القفراً فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرُ
دعاني إلى وصف الطول مسلطاً تضيق ذراعى أن أجوز له أمراً
فسمعاً أمير المؤمنينَ وطاعةً وإن كنت قد جشمتني مَرَكباً وعراً

ومع هذا فقد كان الشاعر يحتال لنعته ، ثم كان لا يعدم في مجلس
الشراب بعضَ التعزية عنها ، فتمة - على الأقل - الساقى المليح الغريب ، إذا هو
طاف بالخمر فلم يشربها من يديه ، شربها لذينة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذل ، أعتبتُ الإمامَ وأعتبا وأعربتُ عما في الضمير وأعربا
وقلتُ لساقينا «أجزها» فلم يكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عني سلافاً ترى لها إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطمناً
إذا عب فيها شاربُ القوم خِلتهُ يُقبلُ في داجٍ من الليل كوكبا

يدور بها ساق أغن تَرَى له على مستدار الأذن صدغاً مُعَقَّرَا
سَقَاهُمْ وَمَنَّا بِي بَعِينِهِ مُنِيَّةً فَكَانَتْ عَلَى قَلْبِي الذِّ وَأَطْيَا
وكان شاعرنا مِسْرَافاً مُضِياعاً لا تحتوى يده على عطاء مهما جَلَّ حتى
يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حُمِلَ ما حُمِلَ إليه أولاً وآخرًا من جوائز ومدوحيه
من الملوك والأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من
صِلات محبِّي منادته من السراة وأهل النعمة ، ولكنه لم يدخر من ذلك كله
شيئاً . وباليته وقف في غرامه بالخمر واستهتاره بها عند إتلاف ما لديه فيها ،
بل صار يزرى على من لا يفعل فَعَلَهُ من عشاقها وخاطبيها :

يَا قَهْوَةً حُرِّمَتْ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ أَثَرَى فَأَتَلَفَ فِيهَا الْمَالَ وَالنَّشْبَا
فلا غرو، وقد نَزَفْتَ الخمر ما عنده من مال، أن تشدَّ به الحاجةُ ويعانى
جهدَ الحال ، لا سيما والخليفةُ غيرُ مُقْبِلٍ عليه كما كان . فهو يتوجه إلى آل
الفضل بن الربيع بالسؤال بعد السؤال يستمنحهم ويستدرّ عطاءهم فيبطئون
عنه . ويشكو الشاعر من خُلف الوعد وكثرة المظل، فيثقل عتابه على نفوسهم
وَيُلْقَى فِي الْحَبْسِ . فيكتب الشاعر الى الفضل في حبسه معتذراً إليه ذا كراً
برّه طالباً عفوه :

أَبَا الْعَبَّاسَ ، مَا ظَنَنِي بِشَكْرِي - إِذَا مَا كُنْتَ تَعْفُو - بِالْذَّمِّ
وَكُنْتَ أَبَا، سِوَى أَنْ لَمْ تَلِدْنِي - رَحِيماً أَوْ أَبَرَّ مِنْ الرَّحِيمِ
لَنْ أَصْبَحْتُ ذَا جُرْمٍ عَظِيمٍ - لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عَفْوٍ كَرِيمٍ
وَيَتَشَقَّ بِجَعْفَرِ أَخِي الْفَضْلِ قَائِلاً :

فلا تجحدوا بي ودَّ عشرين حِجَّةً ولا تُفسدوا ما كان منكم من الفضل
وفما يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار الى العباس بن
الربيع في حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لَعَمْرُكَ مَا (العباس) من ولد (الفضل) فَيُرْجَى لَعْرِفٍ أَوْ يَغَارَ عَلَى بَدَلٍ
فَتَى كَلَّا نَادَيْتَهُ لَمَّةً دَعَوْتَ مَثَالاً لَا يُمِرُّ وَلَا يُحْلِي
فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتمر ، فأخذه وضربه وحبسه
وقيده وأسلمه الى سجانٍ فظَّ غليظٍ كان على المطبق اسمه « سعيد » فضيق
عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وأنفذها الى بكر فيها :

وَقَيْتَ بِي الردى ! زِدْنِي قَيْوُداً وَشَنَّ عَلَى سَوَاطِئِ أَوْ عَمُوداً
وَوَكَّلْ بِي وَبِالْأَبْوَابِ دُونِي مِنَ الرقباءِ شَيْطَاناً مَرِيداً
وَأَعْفِ مَسَامِعِي مِنْ صَوْتِ رَجَسٍ ثَقِيلٍ شَخْصُهُ يَدْعِي « سَعِيداً »
فَقَدْ تَرَكَ الحَديدَ عَلَى رِيشٍ وَأَوْقَرَ بَغْضُهُ قَلْبِي حَدِيداً
فضحك بكر من الأبيات ، ووقف الفضل عليها ، فأمر بإطلاقه فخرج
وهو يقول :

يَا فَضْلُ قَدْ أَوْسَعْتَنِي عِظَةً مَا بَعْدَهَا غَلَطٌ وَلَا سَهْوٌ
ولما كانت الفرصة مؤاتية لكل مضطغن على أبي نواس ، موتور
بهجائه له ، أن يسعى به لدى السلطان ويرميه بالحق أو بالباطل بإحدى
موجبات الحدود ، فقد كثر ما كان يُرفع الى الأمين من الاتهامات ، ينسبون
فيها الزندقة والكفر الى الشاعر ، حتى صحَّ عَزْمُهُ على قتله ، وجعل أمر ذلك

الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجداً عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رُفِعَ
إلى أمير المؤمنين أنك زنديق » . فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضل
يكرّر عليه ، ثم أعاده الى الحبس . وبقى أبو نواس في المطبق دهرًا وهو
يتربّب الموت بين لحظة وأخرى ، وقد تخلى عنه أصدقاؤه وثقاته ، وذلك حيث
يقول :

وأخلاقى أذمكم إليكم	وكنتم بمدحكم قمينًا خليقا
إذا استبطأتكم عنقتموني	وقلتم إن فيه لذاك ضيقا
فأقسم لو تكونون الأسارى	وكنتم أنا الخلى والطيحا
إذا لجهدت فوق الجهد حتى	أطيق خلاصكم أو لا أطيقا
فلا - والله - أذخركم هجاء	وشتماء ما بقيت - ولا عقوقا

وأخيراً كلم الفضل الخليفة فيه ، فأطلق سبيله . فخرج وهو لا يصدق
أنه قد أطلق ، ومضى الى أهله يقول :

أهلى ، أتيتكم من القبر	والناس محبسون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت	عيني الى ولدٍ ولا وفرٍ
وكتب الى الفضل :	

ما من يدٍ فى الناس واحدة	كيد أبو العباس أولاهها
نام الثقات على مضاجعهم ،	وسرى الى نفسى فأحيها
قد كنت خفتك ، ثم أمننى	- من أن أخافك - خوفك الله
يعفوت عني عفوَ مقتدرٍ	وجبت له نعمة فالغاهها

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدّمت ونزلت حلوان ، وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأمين وهزيمتهم في كل حال . وأيقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة إلى قواده وبطانته يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أخضروني غناءكم كما أخضرت خراسان عبد الله غناءها » ، ويستحث فيهم قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله ، لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها ، فما رأيت في ذلك كله حديثاً لرجل منهم كهذا الرجل في إقدامه وسياسته . وقد قصد إلى واجترأ على » ، فها هو اليوم ما عندهم . ولكن جيوش محمد ما برحت تهزم بين يدي طاهر ولم تقم لها قائمة .

وأراد بعض الأمراء أن يستجيش للأمين جنداً من الشام والجزيرة ممن أدبتهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى سوء حظ الأمين إلا أن تقوم فتنة فيهم بين الأبناء الجزريين وأهل الشام الزواويل . فانفض أهل الشام إلى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسين بن علي بن ماهان في عسكره بالرحيل قاصداً بغداد ، فلما وصلها خلع الأمين في ١١ رجب سنة ١٩٦ وحبسه وأعلن البيعة للمأمون . ولكن كبار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسروه ، وأطلقوا الأمين ، وأفعدوه في مجلس الخلافة .

وبينا كانت الأمور في بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام وإحكام التدبير . وقد أرسل

من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور والمدن بشرق بغداد ، وتحول طاهر إلى الأهواز والبصرة في غربتها ، ليكون الهجوم على بغداد من جهتين .

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد ، فحوصرت من عدة جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ، ونصبت عليها المنجنيقات والعرادات وصارت المدينة ترمى في كل وقت بالحجارة . فكثرت الهدم والتحريق ، وخربت الديار ، وعفت الآثار ، وانهبت الأموال وغلّت الأسعار . وبلغت الشدة بالناس كل مبلغ . وانفضّ عن الخليفة المنكود الحظّ طلاب الجاه وأرباب المراتب من خاصته ، والتجار ، وأصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب أن الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقه والعيّارين وأهل السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، في أوساطهم الثبايين والمآزر ، وقد اتخذوا لروسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ، ودرقاً من الخوص والبوارى قد قيّرت وحشيت بالحصى والرمل . وكان على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء تقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون مركباً للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللّجم والمذاب . وعلى هذه الحال كان يتقدم الرؤساء منهم والمقاتلة إلى الحرب مع أصحاب الخيول الفرّه والجواشن والدروع

والتجافيف والسواعد والدرق التَّبَيَّة ، فهؤلاء عراة رهؤلاء بكامل العُدَّة ،
فكان يُقتل منهم الخلقُ الكثير .

ولقد سجَّل هذه الأحداث وقعةً وقعةً في قصائد عدة ، زميلُ أبي نواس
ومواطنُه البصريُّ ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزي
الوراق ، وهو على مجونه قد اشتغل بهذه الخطوب واهتمَّ لها .

وأما أبو نواس فإنه في وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له همٌّ ، وقد
شُغل عنه أولو الأمر ، إلا أن يستأنف حياةَ الفجور والسكر . وإذا كان لم
يفكر في خيانة الأمين والانحياز إلى خصمه ، فإنه كذلك لم يخطر له أن يحمل
سيفاً أو يعتقل رجلاً في القتال عنه . وإنما كان ميدانه مجلسُ اللهو ، وآلات
حربه مقارعةَ الأقداح والتراحم بالزهر ، وقد استبدل بهيعةَ الوغى وسفك
الدماء صوتَ المعازف وحمرةَ الخمر :

إذا عبأ أبو الهيجا	ء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت	أمام الشيخ إعلانا
وشبت حربها واشتعلت	تلب نيرانا
جعلنا القوس أيدينا	وتبل القوس سوسانا
وقدّمنا مكان الرم	ح والمطرّد ريحانا
فعادت حربنا سلماً	وعُدنا نحن خلانا
بفتيان يروون القة	ل في اللذة قربانا
إذا ما ضربوا الطبل	ضربنا نحن عيدانا

وَأَنشَأْنَا كِرَادِيْسًا مِنْ الْخَيْرِيِّ أُلُونَا
وَأَحْجَارُ الْمَجَانِيْقِ لَنَا تَفَاحُ لُبْنَانَا
وَمَنْشَا حَرِّ بِنَاسَاقٍ سَبَا خَمْرًا فَسَقَانَا
يَحْتَ الْكَاسِ حَتَّى يَلَا حَقَّ الْآخِرُ أُولَانَا
تَرَى هَذَاكَ مَصْرُوعًا وَذَا يَنْجَرَّ سَكْرَانَا
فَهَذِي الْحَرْبُ ، لِحَرْبٍ تَعْمُ النَّاسَ عِدْوَانَا
بِهَا تَقْتُلُهُمْ ، ثُمَّ بِهَا نَنْشُرُ قَتْلَانَا

وهذه مقابلة أخرى من مقابلاته بين الحريين :

أَحْسَنُ مَنْ رَمَى بَعْرَادَةً وَمِنْ قَذَافِ الْمُنْجَنِيْقَاتِ
مُسَامِرٌ فِي مَجْلَسٍ حَاضِرٍ أَمَامَ أَعْوَادِ وَنَايَاتِ
وَقِيْنَةٌ تَشْدُو عَلَى صَحْبِهَا تُعْطِيكَ أَسْبَابَ اللِّذَازَاتِ
فَذَاكَ يُسَلِّي الْهَمَّ لَا مَعْرُكٌ يَرَى بِأَحْجَارِ الْمُنْيَاتِ

وإذا كان هذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأيًا يرتئيه ومذهبًا في التفكير
يذهب إليه ، وإنما هو شيء في أصل تكوينه وتركيب طباعه . وإليك عذره
وهو لا شك أدرى بنفسه :

يَا «بِشْرُ» مَالِي وَالسِّيفِ وَالْحَرْبِ وَإِنَّ نَجْمِي لِلَّهِوِ وَالطَّرْبِ
فَلَا تَتَّقُ بِي فَإِنِّي رَجُلٌ أَكْعُ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَالطَّلْبِ
وَإِنْ رَأَيْتُ الشُّرَاةَ قَدْ طَلَعُوا أَلْجَمْتُ مُهْرِي مِنْ جَانِبِ الذَّنْبِ

ولست أدري ما الساعدان، ولا الترس ، وما بيضة من اللب
 همي إذا ما حروبهم غلبت أي الطريقين لي إلى الهرب
 لو كان قصف وشرب صافية وجدتني ثم فارس العرب
 وقد روى إبراهيم الطبري أنه كان في أيام الفتنة جالساً على بابه، إذ مر به
 أبو نواس وقال : « قم حتى نأخذ من شأننا » فدخل فجعل يشر بان . وأقبل
 الداخل بعد الآخر يدخل إليهما فيقول : « كان كذا وكان كذا » فأنشأ أبو نواس

عندي للخمرة أسماء لها دواء ولها داء
 يصلحها الماء إذا صفت وربما أفسدها الماء
 وقائل كانت لهم قصة فيها أحاديث وأنباء
 قلت له : « أي امرئ جاهل فيك عن الخيرات إبطاء
 اشرب ودعنا من أحاديثهم يصططح الناس إذا شاءوا »

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين : المأمونية ، والحمدية ، أربعة عشر
 شهراً . وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله ، وصبر الفريقان جميعاً . وانقطعت
 الموارد بالأمين في أرزاق الجند ، ف ضرب الآنية من الذهب والفضة سرّاً وأعطى
 رجاله . ثم شغب عليه من لم يعطهم من قاداته وجنده وخذله ، واقتصرت
 حامية الخلو وجنده على العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البواري ورماح
 القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر . وكانوا في حربهم
 كالشياطين، وقد اتخذوا تحت آباطهم الخالي فيها حجارة وقطع أجر بيتدرون

بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعمّ في أصحاب طاهر ،
والفرق والحريق في العراة أصحاب الخلويع . واشتدّ الأمر بالناس أي اشتداد
وهم تحت وابل المنجنقات والعرادات ، ينتقل أهل السكك والدروب
من موضع إلى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون
على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه . وكثر القتل في الطرق
والشوارع . يُنادى هذا « يا للمأمون » ، وهذا « يا للمخلوع » ، فيقتل
بعضهم بعضاً . وانتهبت الدور ، وأعملت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز
الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجلٍ وامرأةٍ ، وكبيرٍ وصغيرٍ بما
يسلم معه ، إلى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله . وشدّد طاهر النكير وضيق
الخناق . وأقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز إليه من يصير
في حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه في حربه . واشتدّ الأمر على محمد
الخلوع وجده به . فنصح إليه من نصح بالتسليم . وألحّ عليه الصعاليك من
أصحابه بالخروج من المدينة بالليل إلى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار
الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة
حتى أساموه إلى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم
حتى قتلوه .

وهنا انقلب السكثيرون من مادحي الأمين في أيام عزّه ، إلى القدح فيه
والدشنيع به وتعدد مثالبه بعد موته ، يتقرّبون بذلك إلى الغالب ويخطبون

ودّه . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل
كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثلاً على الوفاء ، كما يشهد كل بيت من
هذا الرثاء :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ	وليس لما تطوى المنية ناشراً
فلا وصل ، إلا عبرةً تستدعيها	أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكر
لئن عمّرتُ دورٌ بمن لا أودّه	لقد عمّرتُ ممن أحبُّ المقابر
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحده	فلم يبقَ لي شيءٌ عليه أحاذر

الخاتمة

عاش أبو نواس ماعاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه إلى إصابة اللذة والتهاك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدّم السنّ وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظلّ على حاله من الخلاعة والمجون إلى أن بلغ الخمسين وإلى ما بعد الخمسين . وإذا ذكرنا أنه كان ناعماً نحيل البدن تعوزه الضلّاعة ومثانة التركيب منذ حدثته ثم أضفنا إلى ذلك علوّ سنّه وكهولته ، لم نصدّق أن استهتاره باللذات وانغماسه فيها مما ينسب إلى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما إذا تدبّرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدوداً من النساء . فالأمر إذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنيّاً ، أو - إذا شئنا اصطناع لغة الفلسفة - كان فجوراً بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدقّ كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو - مهما يَقلُّ عن نفسه - لم يكن أقيح أهل الأرض عملاً ، وإن يكن من أقبحهم قولاً :

عَفٌّ ضميرى ، هازلٌ لفظى ، وفى نظرى عَرَامَه
ولقد كان فى وسع أبى نواس أن يتستّر ويتكتم ويستعمل التقيّة والنفاق

كغيره ، ويُصيب في السرِّ والخفاء من اللهو واللوان اللذات ما يشاء . ومن
الحقّ الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيراً إلا في سترهم
ومجاهرتهم ، وسرهم وعلايته ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى
إلى ولده :

إنصبْ نهراً في طِلاب العُلا	واصبرْ على فَقْدِ لقاء الحبيبْ
حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً	وغاب فيه عنكَ وجهُ الرقيبْ
فبادر الليلَ بما تشتهي	فإنما الليلُ نهارُ الأريبْ
كم من قَتَى تحسبه ناسكاً	يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيبْ
ألْقَى عليه الليلُ أستاره	فبات في هُوٍ وعيشٍ خصبْ
ولذة الأحقْ مكشوفةٌ	يسعى بها كلُّ عدوٍّ مريبْ

ولكن أبا نواس كان لا يعرف اللذة إلا في المجاهرة بها ، وإعلام القاصي
والداني بشئها ، مع المبالغة والتهويل في أمرها ، كأنما اللذة ليست هي التي
تعنيه ، وإنما استهتاره بها هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير
هنا إلى أن هذه الآفة تكون أحياناً من علامات مُرْكَبِ النقص في الضعاف
القاصرين من أهل الإباحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منهتك السَّترِ	وأفضتُ بناتُ السرِّ مني إلى الجهرِ
وهان على الناسُ فيما أرومه	بما جئتُ فاستغنيتُ عن طلب العذرِ
ألا فاستقي خمرأ ، وقل لي هي الخمر	ولا تسقني سرأ إذا أمكن الجهرُ
وبحْ باسم من أهوى ودعني من الكُفَى	فلا خير في اللذات من دونها ستر

أطيب اللذات ما كان جهاراً بافتضاح
والقارئ لجون أبي نواس ينتهى لا محالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه
بأكثر مما يقترف، ذاهباً مع خياله المريض إلى أبعد ما تذهب إليه نزغات الشهوة،
مستغزقاً في تصور ما ليست له عليه قدرة. وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة
يتعوّض من عجزه فيما بينه وبين نفسه، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لفّ
لّقه من أبناء عصره. وأيّاً ما كان الحال، فقد مضى صاحبنا في غوايته،
ساذراً في جهالته، مستكثراً من الفضائح، يضع لهوّه ولذته فوق كل اعتبار،
ولا يبالي ما يجب لسنته من الوقار.

يقولون في الشيب الوقار لأهله . وشيبي بحمد الله غير وقار
وكان كلما أدبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدّم به العمر، تركّزت كل
شهوته في الخمر، فاستهلك في شربها والعكوف عليها :
لم يبق لى في غيرها لذة كَرَحِيَّةٌ في الكأس كالنارِ

قالوا : « شَمِطْتُ » فقلتُ : « ما شَمِطْتُ يَدَيَّ

عن أن تحتّ الى فمى بالكاس »

فالشيخ متعلقٌ بها، مصرٌّ عليها، غير آسٍ على شيء يفوته غيرها .
فهى شغلُه في الحياة وظلّيلَتُه ، وهى ما بعد الحياة همُّه وموضع تفكيره
وموضوع وصيته :

خليلى بالله لا تحفرا لى القبر إلا بقطرُ بُل

خِلَالَ المعاصِرِ بين الكُروم ولا تُدْنِيَانِي مِنَ السُّبُلِ
لَعَلِّي أَسْمَعُ فِي خَفَرِي - إِذَا عَصِرَتْ - ضِجَّةَ الْأَرْجُلِ

على أن الشاعر مع هذا أبياتاً في الزهد لا نحسبه نظمها منافسةً لأبي العتاهية أو غير أبي العتاهية في هذا الباب من الشعر، وإنا الذي نراه، أنه كان في بعض هذه الزهديات صادقاً كل الصدق في شعوره، وأن شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المنساقين في حياة الفسوق والشرب، تنتابهم في الحين بعد الحين فتراتٌ يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفراتهم، ولكنهم ماضون في ضلالهم لا يستطيعون عنه صبراً:

بَكَيْتُ، وما أبكى عَلَى دِمْنٍ قَفَرٍ وما بى من عَشَقٍ فَأَبْكَى عَلَى الْهَجَرِ
ولَكنْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ نَبِينَا فذاك الذى أَجْرَى دُمُوعِي عَلَى النَحْرِ
بِتَحْرِيمِ شَرْبِ الْخَمْرِ وَالنَهْيِ جَاءَنَا فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا بَكَيْتُ عَلَى الْخَمْرِ
فَأَشْرَبُهَا صِرْفًا وَأَعْلَمُ أَنِّي أُعْزَّرُ فِيهَا بِالْثَمَانِينَ فِي ظَهْرِي

موقف هذا المدمن السكير في خمره، موقف المؤمن الغلوب على أمره، يشربها وهو عارفٌ حق المعرفة ما يتعرض له من أجلها في الدنيا وفي الآخرة: الراحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهَا فاشربْ وإن حَمَلَتْكَ الرَّاحُ أَوْزَارَا
يَأْمَنُ يَوْمَ عَلَى حَمْرَاءَ صَافِيَةٍ صِرْ فِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارَا
والقارئ لزهدياته يراه دائماً التفكير في الموت، يتمثل حكمه الجارى على

الأجيال والأشياء من قبلُ ومن بعدُ بغير انتهاء ، فيرى كلَّ جهدٍ الى ضياع ما دامت الغاية الفناء .

وتسلَّطُ فكرة الموت والشعورُ بفناء كل شيء ووشك زواله ، من الأمور التي قد تؤدى الى الزهد في نعيم هذه الحياة العاجلة ، كما قد تؤدى الى ضد ذلك تبعاً لمزاج الشخص وما رُكِّب عليه طباعه . ولقد كان من شعور شاعرنا بقصرِ المدة التي للأحياء على هذه الأرض ، وتيقُّظ حسِّه للأيام تعبر به سراعاً ، وللعمر ينطوى بساطه تحت قدميه ، وعقد الحياة ينفرط بين يديه ، أن حَرَصَ على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رأيتُ الليالى مرصَّدةً لمدَّتِي فبادرتُ لندَّاتى مبادرةَ الدهر

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى في زهدياته تغلب عليه نزعتُه الحسية ، فإذا هو ذكر الموت والقبر ، افترن ذكرهما بما يتمثله تحت التراب من الوجوه الوضاء ذات السمِّ والرواء :

أيارُبَّ وجهٍ في التراب عتيق وياربَّ حسنٍ في التراب رقيق

وما الحى إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عريق

وهو إذا زجر نفسه عن الهوى ، ووعظها بالشيب ، واستحثها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين إلا نساءها من الخور العين :

أيةُ نارٍ قدَحَ القادحُ وأى حِدٍّ بلغ المازحُ

لله در الشيب من واعظٍ وناصحٍ لو حذر الناصحُ
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
فاسمُ بعينيك إلى نسوةٍ مهورهنَّ العملُ الصالحُ
لا يجتلى الحوراء من خدرها إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذى سيق إليه المتجرُ الراجح

ومن كان هذا مزاجه وهذه إرادة طباعه ، فكيف يرجى له أن يزهد
ويتبتل ، ولا سيما إذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثل ما فى بغداد
وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به وصف ولا يدخل تحت حصر :
قالوا « تنسك بعد الحج » قلت لهم « أرى ، وأرجو ، وأخشى طيز نابذا
أخشى قضيب كرم أن ينازعنى رأس القطار وإن أسرعت إغذاذا
ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطربل ، فقرى بئى ، فكلوا ذا
فإن سامت - وما قلبى على ثقة من السلامة - لم أسلم ببغذاذا
وإلى جانب هذه الغوايات الحسية غواية أدبية ، إن جازت هذه التسمية
على حرص هذا الماخن على ما شاع له من شهرة وصيت فى القبايح والمنكرات .
لقيه أبو العتاهية فى المسجد وقال له : « أما آن لك أن ترعوى ؟ أما آن لك أن
تزجر وقد بلغت من السن والعلم ما فى دونه يتعظ العاقل اللبيب ، وأنت
تعافر بنت الحارث ، وتصبو صبوة الشبان ! » . فرفع أبو نواس رأسه إليه
وهو يقول :

أُتْرَانِي يَا عَتَاهِي تَارِكًا تِلْكَ الْمَلَاهِي !

أُتْرَانِي مُفْسِدًا بِالنَّاسِ لِكَيْ يَبِينَ النَّاسُ جَاهِي !

والذي يقرأ عن أبي نواس مَارَكِبَ مِنَ الْحَارِمِ وما بلغ من مجاهرته بالمعاصي ، ويقرأ له شعره في المجون وقبح خروجه أحياناً على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرّض للقتل بجهد ، وما جرّه على نفسه من التعزير والضرب والحبس في المطبق ، وهو لَا يُقَصِّرُ عَنْ بَاطِلِهِ وَلَا يَنْزِعُ عَنْ جَهْلِهِ ، قد يتصور أنه منكرٌ من الملاحدة المعطّلة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائرٌ ماردٌ من العصاة العتاة على غرار إبليس ، يجترئ اجتراءه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصّى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمنٌ مصدّقٌ بقلبه . ولا نقول إنه لم يتشكك ، فقد عاش في عصرٍ من عصور الشك . ولكنه شكٌّ من النوع الذي قد يعرّض للمؤمن فلا يُخْرِجُهُ إِلَى الْإِنْكَارِ ، ثم إن معظمه لا يعدو ما يجري عليه ظرفاء كلِّ عصرٍ من مخالفة العامة وإظهار الخروج على العرف ، يضاف إليه ذهابه مع الخلاعة والمجون إلى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه ممن كانوا يعذّلونه ويعيبون عليه مجونه رواياتٌ عدةٌ كلّها شاهد على إيمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول إذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله إني لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يُفِرُّ عَلَى » ، وأرجو أن أتوب فيرحمني الله عز وجل . »

وظاهر من هذا أن أبانواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصي وهو فارغ البال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاع عنها التماساً لرضاه . وهى حال من التناقض توقع فى الحيرة ولا يتبين معها وجه الطريق . على أن العصر — بما كان شائعاً فيه من مذاهب الجدل والكلام — لم يعد ما يغالط به ويستند إليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة إلى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الإيمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الإنسان ركناً من أركان الإيمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يعد كافراً ، بل يقال عليه فاسق فى كذا من غير إطلاق ، وإذا كان غير معدود فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم إن الله لا يتخلف فى الثواب وعده ، لأن الثواب فضل فينى الله به لأن فى خلفه نقصاً . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخلف ، لأن العقاب عدل والله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول أبانواس :

لا بأعمالنا نطبق خلاصاً يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أننا — على الإساءة والتفريط — نرجو لحسن عفو الإله
ولقد عارض الخوارج والمعتزلة هذا رأى أشد المعارضة . ولعل لهم فى ذلك العذر ، لا كراهة لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدى إليه من تهوين أمر المعاصى وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غادر المدام وإن كانت محرمةً فللكبائر عند الله غفران

وقد حتم أبو نواس إحدى قصائده في وصف الحجر ، وطروقة للخمرات ،
معروضاً ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو إبراهيم النظام ، لمعارضته
مثلهم لهذا المذهب في العفو عن مرتكب الكبيرة :

فَقُلْ لِمَنْ يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةً : « حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوُ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا فَإِنْ حَظَرَكَهُ بِالْدِينِ إِزْرَاءُ »
من أجل ذلك كان هذا العصر العباسي بما فيه من اللهو ، تروج فيه
مذاهب الإرجاء وخاصة فلسفة العفو^(١) . ولقد أكثر الجان الخلعاء من
الشعراء القول في ذلك ، وكادوا يتواصون بالاستسكان من المعاصي ليظهر
عفو الله أجل وأشمل :

تَكَثَّرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بَالِغٌ رَبًّا غَفُورًا
سَتَبْصِرَ - إِنْ قَدِمْتَ عَلَيْهِ - عَفْوًا ، وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا
أَعْضَى نَدَامَةً كَفِيكَ مِمَّا تَرَكْتَ - خُفَافَةَ النَّارِ - السُّرُورَا
وَلَا جَرَمَ يَكُونُ أَشَدُّ الْقَوْمِ تَوْرَطًا فِي الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي ، أَكْثَرَهُمْ تَوَجُّهًا
إِلَى اللَّهِ ، وَأَلْهَجَهُمْ بِذِكْرِ عَفْوِ اللَّهِ ، وَأَنْ عَفْوُهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَمَا مِنْ
ذَنْبٍ مِثْمَا عَظُمَ إِلَّا وَعَفْوُهُ أَعْظَمَ . وَلَا جَرَمَ تَكُونُ أَشْعَارُ أَبِي نَوَاسٍ فِي ذَلِكَ
فَوْقَ الْجَمِيعِ وَفِرَّةً وَحَرَارَةً لَهْجَةٍ :

يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ ، عَفْوَالَا هَ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ وَقَدَّرَ

ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر
أعظم الأشياء في أصغر غير عفو الله يصغر

ولقد أثرت الحياة التي عاشها أبو نواس في صحته ، وفعلت فعلها في
بنيتها ، فذب الوهن إلى قوته وغاض معين شرته ، ورث برّد شبابه وذوى
عوده ، وبادرته الشيخوخة قبل الأوان ، وأسرع إليه المشيب ولات حين مشيب :
شيب رأسى الهوى على صغر
وليس شيبى من باطن الكبير

وإذا عَدَدْتُ سِنِيَّ كَمْ هِيَ ، لم أجد للشيب عذراً في النزول براسى
ولم يلبث أبو نواس أن ضعف جسمه عن المقاومة ، على ما به من الحيوية
والراح . فجعلت تترادف عليه الأسقام والأوصاب ، وهو يغالبها بالشراب
ويحمل عليها بالهوى ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرض ومنعه عن الحركة .
فلزم المسكين بيته ، وقضى أياماً مثبتاً في فراشه لا يبرحه ، عميداً لا يقدر على
الجلوس حتى يُعَمَدَ من جوانبه بالوسائد . وكان أصدقائه يعودونه في مرضه ،
فيجدونه كلَّ يوم أسوأ حالاً من اليوم الذى قبله ، منتفون الوجه ، متغير
اللون ، قد برى السقم جسمه ، وأذهب لحمه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحى
الذهن متنبه الحس ، لا ينى ينظم الشعر ويغمغم به في وصف حاله ، ويكتب به
إلى أصحابه :

شِعْرٌ حَيٌّ أَتَاكَ فِي لَفْظٍ مَيِّتٍ صار بين الحياة والموت وقفاً

لو تأملتني وأبصرت وجهي لم تجد من مثالي رسمى حرفاً
نفس خافت ، وجسم نحيل أرمضته الأسقام حتى تعفى
ولم يلبث الحسن بن هاني الشاعر الماكن الخليع أن طغى وعاجلته المنية
وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن
في مقابر الشونيزي في التل المعروف بتل اليهود ، على شاطئ نهر عيسى ببغداد .
وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازعنيك الزمان يا «حسن»
نخاب سهمي وأفلح الزمن
ليتك إذ لم تكن بقيت لنا
لم تبق روح يحوطها بدن
وما يروى عنه في مرض موته أنه التفت ذات مرة إلى عواذه فقال :
« لا تشربوا الخمر صرفاً ، فإني شربتها صرفاً فأحرقت كبدي » . وكان
لا يكف في كل مرة - مع ضعفه وخفوت صوته - عن إنشادهم شعراً له بعد
شعر ، يظهر فيه التوبة ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دب في الفناء سقلاً وعلواً وأراني أموت عضواً فعضواً
ذهبت شرقي بحجة نفسي ، وتذكرت طاعة الله نضواً
ليس من ساعة مضت بي إلا نقصتني بمرها بي جزواً
لهف نفسي على ليالٍ وأيّامٍ م سلكتهن لعباً وهواً
قد أسأنا كل الإساءة - يارب - فصفحاً عنا إلهي وعفواً

وقد مضى بعضُ أصدقائه إلى بيته عقب وفاته ودَفَنه ، فدخل إلى مرقده
وثيابه لم تحركْ بعدُ ، فإذا كلُّ ما خلقه قِمَطْرٌ فيه دفاتر وجذاذات قراطيس
فيها نسخُ أشعارٍ وغريب ألفاظٍ ، وزدٌ وشرنجٌ وعودٌ وطنبور . فرفعَ
وسادته ، فإذا برقعةٌ مكتوبٌ فيها :

يا ربِّ ، إن عظمتُ ذنوبي كثرةً . فلقد علمتُ بأنَّ عفوك أعظمُ
مالي إليك وسيلةً إلا الرجا . وجميلُ عفوك ، ثم أنى مسلمُ



ثبت المراجع

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني	الكامل لابن الأثير
وفيات الأعيان لابن خلكان	الفخرى لابن الطقطقي
أخبار أبي نواس لابن منظور	مروج الذهب للمسعودي
ديوان أبي نواس لجامعه حمزة الاصبهاني	تاريخ بغداد للخطيب البغدادي
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي	تاريخ دمشق لابن عساكر
معجم الأدباء لياقوت الحموي	الولاة والقضاة للسكندی
نزهة الالبا لابن الأنباري	معجم البلدان لياقوت الحموي
المعارف لابن قتيبة	البلدان لليعقوبي
الفهرست لابن النديم	حديث الأربعاء للدكتور طه حسين بك
العقد الفريد لابن عبد ربه	ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك
نهاية الأرب للنويري	حضارة الاسلام للأستاذ نخلة المدور
البيان والتبيين والحيوان للجاحظ	الديارات النصرانية للأستاذ حبيب زيات
الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم	تاريخ تمدن الاسلامي لجورجي زيدان
الملل والنحل للشهرستاني	مجلة الهلال (العدد الخاص بأبي نواس)
الوزراء والكتاب للجهشياري	دائرة المعارف الإسلامية الخ...
تاريخ الأمم والملوك للطبري	

دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترعها دائرة المعارف الإسلامية

أحمد الشفناوى . عبد الحميد بونس

أبراهيم زكى فورشيد . حافظ جهول

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

- ١ - عمرو بن العاص للمؤستاذ عباس محمود العقاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
- ٢ - منصور الأندلس » على أدهم » » ابريل »
- ٣ - بشار بن برد » ابراهيم عبدالقادر المازني » » مايو »
- ٤ - المعز لدين الله » ابراهيم مجهول بك » » يونيه »
- ٥ - محمد عبده للمؤكتور عثمان أمين » » يوليه »
- ٦ - أبو نواس للمؤستاذ عبد الرحمن صرقي » » أغسطس »

الكتاب السابع

محمد علي الكبير للمؤستاذ شفيق غريمال

يصدر في سبتمبر سنة ١٩٤٤

198

»

»

»

»

»

DATE DUE



LIBRARY
A.U.B. LIBRARY

892.78:A989YsdA:c.1

صدقي، عبد الرحمن

أبو نواس: قصة حياته وشعره

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01035019

892.78
A989YsdA

892.78
A989YsdA
C.1